

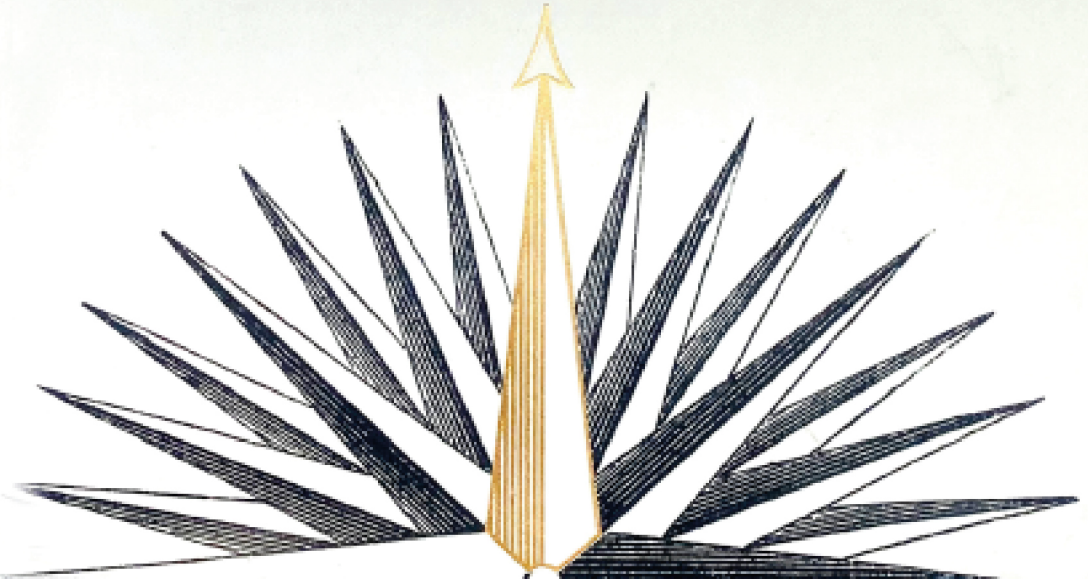


تريندز للبحوث والاستشارات
TRENDS RESEARCH & ADVISORY

ملخص كتاب هنري كيسنجر

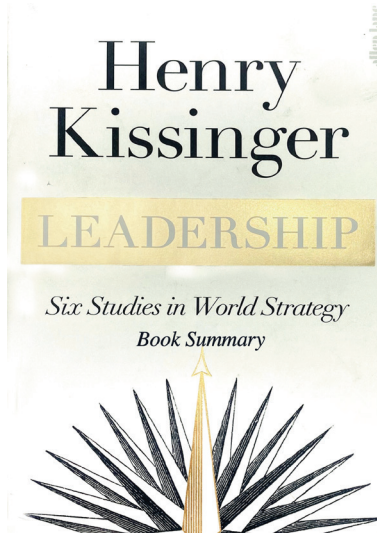
القيادة

ست دراسات في الاستراتيجية العالمية





تريندز للبحوث والاستشارات
TRENDS RESEARCH & ADVISORY



القيادة: ست دراسات في: الاستراتيجية العالمية

ملخص كتاب

المؤلف: هنري كيسنجر

عن المؤلف

شغل الدكتور هنري ألفرد كيسنجر منصب وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية بين عامي 1973 و1977 كما شغل منصب مساعد الرئيس لشؤون الأمن القومي الأمريكي من عام 1969 إلى عام 1975. وتولى هذين المنصبين خلال إدارتي الرئيس ريتشارد نيكسون، والرئيس جيرالد فورد. وفي عام 1973، حصل على جائزة نوبل للسلام بالاشتراك مع لي دوك ثو، من فيتنام الشمالية؛ تقديرًا لجهودهما في التفاوض على تسوية للحرب الفيتنامية.

يعمل الدكتور كيسنجر حاليًا رئيسًا لشركة كيسنجر أسوشيتس Kissinger Associates, Inc، وهي شركة استشارية دولية. وقد كتب العديد من الكتب والمقالات عن السياسة الخارجية الأمريكية والشؤون الدولية والتاريخ الدبلوماسي. كما أجرى العديد من المقابلات في وسائل الإعلام؛ أشهرها كان عن آرائه حول علاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع روسيا والصين.

أهمية الكتاب

يحلل كيسنجر في هذا الكتاب حياة ستة قادة استثنائيين، وذلك من خلال الاستراتيجيات المتميزة لفن الحكم والإدارة، ويقدم مجموعة رائعة من دراسة الحالة التاريخية والسَّير السياسية التي تمزج بين الأحداث والشخصية القيادية بسلاسة. والقادة الستة هم: كونراد أديناور، وشارل ديغول، وريتشارد نيكسون، وأنور السادات، ولي كوان يو، ومارغريت تاتشر. وقد برز جميع هؤلاء القادة في فترة انهارت فيها المؤسسات القائمة في جميع أنحاء أوروبا، وأفسحت الهياكل الاستعمارية المجال للدول المستقلة في آسيا وأفريقيا، وكان لا بد من إقامة نظام دولي جديد من بقايا النظام القديم. ولأن كيسنجر كان على معرفة بكل موضوع من المواضيع التي يتناولها وشارك في العديد من الأحداث التي يصفها، فإنه يضيف الإدراك التاريخي والخبرة العامة والمعرفة الشخصية على كل هذه الدراسات. ويذكر الكتاب بالرؤى الحصيفة والأحكام التي لا يمكن أن يأتي بها شخص سوى كيسنجر، ويختتم بتأملاته حول النظام العالمي واستحالة الاستغناء عن القيادة والحنكة السياسية في فن الحكم اليوم.

ملخص تنفيذي

- يناقش كيسنجر دور القيادة في المجتمع، خصوصاً في أوقات الانتقال وعدم اليقين. ويؤكد أن القيادة أمرٌ ضروري لتوجيه أيّ مجتمع بين ماضيه ومستقبله، ولسدّ الفجوة بين القيم الراسخة والطموحات الجديدة. ويُنظر إلى القادة على أنهم صُنَّاع قرار ينبغي لهم تحليل تاريخ المجتمع وظروفه وقدراته لكي يتخذوا خيارات تحرّك تطوّر المجتمع وتوجّهه، ويوازنون المعرفة المستقاة من الماضي مع الرؤى الحدسية حول المستقبل من أجل وضع الأهداف والاستراتيجيات.
- يُقال إن القيادة الفاعلة تتطلب شجاعة وشخصية قوية، ولا بد من توافر الشجاعة لاتخاذ القرارات الصعبة واختيار التوجهات. والشخصية القوية تحافظ على الالتزام بالقيم على مرّ الزمن. ويسلّط الكتاب الضوء على أهمية التواصل والقدرة على حفز الناس وحشد الدعم بينهم.
- يعمل القادة ضمن إطار من القيود، بما فيها ندرة الموارد، ومحدودية الوقت، والمنافسة. وتتضمن عملية القيادة اتخاذ قرارات استراتيجية في ظل هذه القيود، وكثيراً ما تُتخذ هذه القرارات بناءً على معلومات محدودة، ما يجعل القدرة على إدارة المخاطر أمراً ضرورياً. ويشبّه الكتاب القيادة الاستراتيجية بالسير على حبل مشدود بين يقينيات الماضي ومجاهيل المستقبل. ويؤكد ضرورة أن يتكيف القادة ويتخذوا قرارات حتى في الحالات التي تنعدم فيها المعلومات.
- يناقش هذا القسم تأثير الظروف التاريخية في حياة ستة أشخاص بارزين وفي قدراتهم القيادية، وهم: كونراد أديناور، وشارل ديغول، وريتشارد

نيكسون، وأنور السادات، ولي كوان يو، ومارغريت تاتشر. وقد صنعت هؤلاء القادة الأوقات المضطربة التي عاشوا فيها، بما فيها نتائج الحربين العالميتين الأولى والثانية.

- يناقش الكتاب نوعين مميزين من القيادة: رجل الدولة، والنبى. ويؤكد أن معظم القادة إداريون، في حين أن بعض القادة يُحدثون تحولات في أوقات الأزمات. وللنوعين من القادة، رجال الدولة والأنبياء، مقاربات وأولويات مختلفة.
- يتصف رجال الدولة بالبراغماتية والتركيز على الحفاظ على مجتمعهم من خلال التكيف مع الظروف وتشجيع التطور التدريجي. إنهم يتبنون التغيير مع الحفاظ على جوهر مجتمعهم، كما أنهم حذرون ويدركون القيود المحيطة، حتى بالخطط المصممة تصميماً جيداً. ويعملون داخل إطار التاريخ ويهدفون إلى تحريك مجتمعاتهم إلى الأمام ونقل القيم الأساسية إلى الأجيال القادمة في الوقت نفسه.
- أما الأنبياء، فإنهم قادة رؤيويون يتحدّون الوضع القائم ويهدفون إلى إعادة تعريف ما هو ممكن، ويسعون إلى تغيير جذري، وكثيراً ما يتغاضون عن التدرج في سعيهم إلى تحقيق رؤيتهم. ويُلغى القادة النبويون الماضي لكي يضعوا الأساس لمشاريعهم الجديدة. إنهم يركّزون على المعايير المطلقة ومستعدون لتحمل شتى أنواع المعاناة من أجل تحقيق أهدافهم.
- يناقش الكتاب التحدي المتواصل الذي يواجهه القادة، ألا وهو: منغُ المطالب الحالية من أن تطغى على التطلعات المستقبلية، وينقّب في الجدل التاريخي حول العلاقة بين الإرادة البشرية والأحداث الحتمية. وقد برز في العالم الغربي منظور يرى أن الأحداث تحركها عمليات ضخمة، ما يجعل الأفراد أدوات بدلاً من مبدعين. وكان علماء، مثل فيرناند براوديل، قد رأوا الأفراد وتصرفاتهم بمثابة اضطرابات سطحية في بحر المدّ والجزر التاريخي الأوسع.

ملخص تفصيلي

الفصل الأول: كونراد أديناور - استراتيجية التواضع

- يناقش الكتاب تداعيات الحرب العالمية الثانية في ألمانيا والتحديات التي واجهها القادة خلال تلك الفترة. ويقدم تفصيلاً لتاريخ الحكم في ألمانيا، من الملكية إلى الجمهورية إلى الدولة الشمولية. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، خسرت ألمانيا شرعيتها واستقرارها، ووقّعت مسؤولية استرداد الكرامة والشرعية على كونراد أديناور، الذي عمل عمدةً لمدينة كولونيا.
- يصف المؤلف حياة كونراد أديناور المبكرة ومسيرته السياسية التي أفضت إلى دوره قائداً خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. فقد كان والد أديناور، يوهان، ضابط صف سابقاً، ووالدته المنحدرة من عائلة مصرفية، عازمين على توفير فرص تعليمية له. وتضمنت تنشئة أديناور القيم الكاثوليكية، بالتشديد على الخطيئة والمسؤولية الاجتماعية.
- أصبحت معارضة أديناور لصعود هتلر إلى السلطة واضحة ومتجسدة في أفعال وتصرفات مختلفة، بما في ذلك التصويت ضد قانون التمكين وإزالة الأعلام النازية من المعالم التاريخية العامة. وبعد فصله من منصبه بعد انتخاب هتلر، بحث عن ملجأ في أحد الأديرة؛ حيث درس المنشورات البابوية التي تتوافق مع قناعاته السياسية.
- في ديسمبر 1945، حضر أديناور اجتماعاً لتكوين حزب جديد أصبح في النهاية حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي، الذي جمع أعضاء سابقين في

حزب الوسط الكاثوليكي وحزب الشعب الوطني الألماني المحافظ، والحزب الديمقراطي الألماني الليبرالي. وساعد أديناور في صياغة الفلسفة السياسية لحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي، التي تؤكد على الديمقراطية والمحافظة الاجتماعية والتكامل الأوروبي، وترفض ماضي ألمانيا القريب ونظامها الشمولي.

- رُوِّجت خطابات أديناور العامة للمحاسبة الذاتية وأتباع نهج متواضع تجاه ماضي ألمانيا. ودعا إلى مستقبل أوروبي بدلاً من الانغماس في النزعة القومية المتحسرة على الذات. وكان أسلوب أديناور في القيادة على النقيض من أسلوب هتلر؛ حيث كان يطمح إلى إقامة حكم مسالم وآمن. وقد جعلته سمعته والثقة التي اكتسبها بالنأي بنفسه عن هتلر، خياراً طبيعياً لقيادة حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي.

- أكد خطاب قبول أديناور على تكوين اتحاد أوروبي حقيقي للتغلب على النزعة القومية، وقدم موجراً لإقامة شراكة في مجال السياسة الخارجية مع القوى الأجنبية المحتلة وتحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية. وكان نهج أديناور البراغماتي والرؤيوي مؤشراً إلى تحوُّل عميق في دور ألمانيا في تشكيل أوروبا جديدة من خلال الإجماع وتوافق الآراء، حتى مع بقاء ألمانيا تحت المراقبة والاختبار في نظر جيرانها.

- كانت أولوية أديناور تتمثل في تقوية العلاقات مع الغرب، خصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية، من أجل استعادة مكانة ألمانيا في العالم. وكان يهدف إلى دمج ألمانيا في أوروبا الغربية وإعطاء الأولوية للتعاون والتصالح بشأن إعادة توحيد الدولة المنقسمة.

- تبنّى أديناور خطة مارشال، بوصفها وسيلة لتحقيق الوحدة الفيدرالية والتعاون الأوروبيين، ووافق على اتفاقية (الروور) كجزء من هذه العملية؛ حيث فسّرهما على أنها خطوة نحو نظام اقتصادي جديد في أوروبا الغربية.

وكان توجهه هو الخضوع لسيطرة الحلفاء مؤقتًا من أجل تحقيق المساواة على المدى الطويل.

- رأى الاتحاد السوفيتي في إعادة بناء اقتصاد ألمانيا الغربية وبناء مؤسساتها السياسية تحديًا مباشرًا. ففي عام 1948، حاصر الاتحاد السوفيتي طرق الوصول إلى برلين، متحديًا اتفاقية القوى الأربع الخاصة بحكم المدينة بعد الحرب العالمية الثانية. وأقامت الولايات المتحدة الأمريكية جسرًا جويًا للتغلب على الحصار. وأنهى الاتحاد السوفيتي حصار برلين في عام 1949، لكنه أنشأ جمهورية ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية) في منطقتها وأحکم تقسيم ألمانيا.

- سعى أديناور إلى مصالحة ألمانيا مع جيرانها، خصوصًا فرنسا، والدعوة إلى التكامل الأوروبي. وتم اقتراح جماعة الدفاع الأوروبية، التي تضمنت إدماج وحدة عسكرية ألمانية. وواجه أديناور معارضة من فرنسا ومن برلمان ألماني منقسم.

- نجح أديناور في إعادة بناء القوات المسلحة الألمانية، ما أدى إلى الحصول على العضوية الكاملة في حلف الناتو وإنهاء قانون الاحتلال في عام 1955. ومن خلال استراتيجية التواضع والتصالح، حوّل أديناور ألمانيا الغربية من حالة التقسيم ما بعد الحرب إلى الاندماج الكامل في أوروبا وحلف الناتو، محققًا بذلك الأهداف التي حددها خلال تنصيبه مستشارًا لجمهورية ألمانيا الاتحادية.

- كان نهج أديناور الأخلاقي في السياسة الخارجية، خصوصًا فيما يتعلق بتعامل ألمانيا مع الشعب اليهودي، معقدًا بسبب الجرائم النازية التي ارتكبت في حق اليهود خلال الهولوكوست. وأقرّ بالواجب الأخلاقي والمصلحة الذاتية الوطنية الألمانية في تقديم تعويضات للناجين وورثة

الفظائع النازية الوحشية، غير أن التزامه باجتثاث النازية، حينما كان أيضًا رئيسًا لحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي، شكّل الكثير من التحديات لأنه أثر في جزء كبير من الناخبين.

- ركّز أديناور على المصالحة الداخلية وتعويض الناجين من الهولوكوست بدلًا من الانتقام. وفي عام 1951 طلبت إسرائيل تعويضات قدرها 1.5 مليار دولار من قوى الاحتلال والحكومتين الألمانيّتين. وردّ أديناور نيابة عن الجمهورية الاتحادية، معترفًا بالجرائم المرّوعة التي ارتكبت وواجب ألمانيا الأخلاقي والمادي أن تقدّم تعويضات.

- اتسمت زيارة أديناور لإسرائيل بالتوتر بينه وبين ورئيس الوزراء الإسرائيلي، ليفي إشكول. فقد أكد إشكول أن العلاقات الألمانية-الإسرائيلية لا يمكن أن تكون طبيعية؛ بسبب الهولوكوست، في حين أكد أديناور حُسن نية ألمانيا. وفي أعقاب استعادة ألمانيا لسيادتها واندماجها في النظام الأوروبي والدولي، برزت تحديات جديدة أمام المستشار أديناور.

- يتأمل كيسنجر تجاربه وتفاعلاته مع المستشار أديناور. وكان كيسنجر قد هرب من ألمانيا النازية مع عائلته وأصبح فيما بعد أكاديميًا ومستشارًا لدى البيت الأبيض في عهد الرئيس كينيدي. وفي أواخر خمسينيات القرن العشرين، تعامل مع مسؤولي حكومات أجنبية، بما في ذلك إدارة أديناور؛ بهدف صياغة السياسة الأمريكية تجاه ألمانيا التي أصبحت جزءًا من حلف الناتو.

- وعلى الرغم من إعجاب كيسنجر بقيادة أديناور، فقد ظل قلقًا بشأن التأثير النفسي لتاريخ ألمانيا العنيف على عملية صنع القرار خلال حقبة الحرب الباردة. وأشار إلى الآثار النفسية العميقة في ألمانيا التي أفرزتها خسارة حربين عالميتين، والثورات التي مرّت بها، وارتكاب جرائم في الحقبة

النازية. ولاحظ جواً من الهستيريا والتصرفات غير المتزنة، ووصف ألمانيا بأنها مرشحة للإصابة بانهييار عصبي.

- في هذا القسم من الكتاب (أكتوبر 1957)، يسرد المؤلف محادثة أجراها مع المستشار أديناور حول العلاقات الدولية والردع النووي، حيث أكد أديناور على الطابع الجوهرى والدائم للصراع بين الغرب والاتحاد السوفيتي، وحذّر من تقديم تنازلات للسوفييت أو الألمانين الشرقيين، وأكد أن وضع برلين المنقسم يمكن تَقْبُلُهُ على الرغم من التحديات.

- ناقش أديناور أيضاً الانشقاق المحتمل بين الصين وروسيا، ملمحاً إلى أن المراقبين الجادين يعتقدون أن حدوثه وشيك. ونبه إلى أن الوحدة الغربية ضرورية وأن النزاعات بين الحلفاء ينبغي تجنبها، في مواجهة التحديات العالمية المتطورة. ونسب أديناور وجهة النظر هذه إلى المؤلف، على الرغم من أن الانشقاق الصيني-السوفيتي لم يكن متوقَّعاً على نطاق واسع في ذلك الوقت.

- كان التركيز الأساسي للمحادثة منصباً على موثوقية الضمان النووي الأمريكي. وقد عبّر أديناور عن قلقه تجاه ما إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية ستجازف حقاً بالدمار النووي دفاعاً عن حلفائها. وطرح سيناريوهات افتراضية لاختبار العزيمة الأمريكية، مثل المخاطرة بدمار نووي في الأشهر الأخيرة من ولاية أي رئاسة أو بعد انفجار قنبلة هيدروجينية في مدينة أمريكية كبرى.

- يصف المؤلف محادثة جرت في 18 مايو 1961 مع المستشار أديناور، على خلفية مشهد سياسي متغير. فقد مثل جون إف كينيدي، الرئيس الأمريكي الجديد، فاصلاً بين الأجيال وكان يجابه تحديات إدارة الأهداف العالمية، بما فيها طمأنة ألمانيا المهزومة.

- سعى أديناور وكينيدي إلى تحقيق أهداف مهمة، ولكن منهجيهما كانا مرَّكزيْن في نقاط انطلاق مختلفة. فقد تولى أديناور منصبه عندما كانت ألمانيا في أدنى وضع لها، وكان يسعى لإعادة بناء القيم الديمقراطية وسط فوضى الاستسلام غير المشروط. وفي المقابل، جاءت رئاسة كينيدي في ذروة القوة الأمريكية والثقة بالنفس، مع إيمان صارم بالمهمة الإلهية للولايات المتحدة الأمريكية القائمة على القيم الديمقراطية والقوة المهيمنة.
- لمعالجة مخاوف أديناور، تم ترتيب جلسة إحاطة خاصة، ترأسها المؤلف، تركز على السياسة الأمنية الأمريكية والقدرات النووية. لقد تغيّر موقف أديناور، المتشكك في البداية؛ بسبب الإحاطة التي أكدت قوة القوات النووية الأمريكية الساحقة، مقارنة بالسوفييت. وتغيّرت نظرته وأعرّب عن امتنانه لقوة الولايات المتحدة الأمريكية في الدفاع عن الحرية.
- وجد الشعب الألماني نفسه منقسمًا بعد الحرب العالمية الثانية، بتقسيم البلاد إلى ألمانيا الشرقية الشيوعية وألمانيا الغربية الديمقراطية. وكانت سياسة أديناور تقوم على التعامل مع هذا التقسيم على أنه مؤقت، متوقعًا توحيد البلدين في نهاية المطاف من خلال تفكيك دائرة النفوذ السوفيتي، والنمو الاقتصادي للجمهورية الاتحادية، وقوة الحلف الأطلسي، والتوترات الداخلية داخل حلف وارسو. لقد ظل توحيد الألمانيتين قضية سياسية رئيسية في ألمانيا الغربية، وأدت الضغوط السوفيتية باستخدام وعد التوحيد إلى تعقيد الوضع.
- تهدف سياسة أديناور إلى الحفاظ على علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية، والاندماج في أوروبا، وتقوية الحلف الأطلسي. وكان يعتقد أن وضع برلين، بوصفها العاصمة التاريخية لألمانيا، لا ينبغي التفاوض حوله على حساب التقسيم المؤقت. لكن الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني،

الذي يواجه هزائم انتخابية ويتأثر بمناورات خروتشوف، بدأ يغيّر موقفه تجاه المفاوضات مع أوروبا الشرقية وألمانيا الشرقية، وكان هذا إيذاناً ببداية استراتيجية السياسة الشرقية Ostpolitik.

- يدرس القسم الذي عنوانه «المحادثات النهائية» منظور أديناور ما بعد تنحيه عن منصب المستشار، وأفكاره حول مستقبل ألمانيا، والقيادة، وحرب فيتنام، وأهمية الحلف الأطلسي: تنحى أديناور في عام 1963 بعد 14 عاماً أمضاها في منصب المستشار. وعلى العكس من بعض القادة الذين ظلوا مرتبطين بأدوارهم السابقة، بدأ أديناور منفصلاً عن القضايا المباشرة وأكثر تركيزاً على الاتجاهات الطويلة الأجل في ألمانيا.

- كان أديناور قد ناقش مخاوفه بشأن تصوّر ألمانيا لذاتها واستمراريتها التاريخية، وذلك خلال محادثة في يناير 1967، قبل وقت قصير من وفاته. وكان يعتقد أن ألمانيا كانت مضطربة ليس فقط بسبب ماضيها النازي، بل أيضاً بسبب غياب الرؤية والوعي التاريخي. وتوقّع أن ردود أفعال ألمانيا على التطورات الطارئة في التاريخ يمكن أن تؤدي إلى عدم استقرار دائم.

الفصل الثاني: شارل ديغول - استراتيجية الإرادة

- عندما زار نيكسون باريس، رحب به الرئيس الفرنسي، شارل ديغول، شخصياً في المطار ورفع المناسبة إلى مستوى زيارة رسمية. ورُكِّز ديغول في كلمته الترحيبية على المصلحة الوطنية الفرنسية واحترامه الشخصي لنيكسون، من دون أن يذكر العبارات التي كانت سائدة بين القادة الآخرين في العواصم الأوروبية، مثل حلف الناتو أو السوق المشتركة. وخلال حفل استقبال في الإليزيه، واجه ديغول نيكسون بشأن حرب فيتنام، وتحوّل حديثهما إلى المصادقة الأمريكية الدولية والشرق الأوسط.
- اختلفت مبادئ ديغول عن مبادئ الرؤساء الأمريكيين السابقين، باعتبارها على السياسات الأطلسية. ودعا نيكسون أستاذاً للتاريخ للتعليق، ما أدى إلى مناقشة حول بسمارك وهيمنة ألمانيا في أوروبا. وفي عام 1940، بعد هزيمة القوات الفرنسية في النزوح، حلّ بول رينو محلّ إدوارد دالادييه في رئاسة الوزراء. وتمت ترقية ديغول، الذي كان آنذاك عسكرياً محترفاً غير معروف إلا لقليل من الناس، واختاره رينو وكيلاً لوزارة الدفاع.
- عندما واجهت فرنسا الغزو الألماني، طار ديغول إلى لندن في 18 يونيو 1940؛ حيث ألقى خطاباً جريئاً على الـ (بي بي سي) أعلن فيه تشكيل حركة مقاومة ضد سياسات الحكومة الفرنسية. ودفعت استسلام فرنسا ديغول إلى السعي لاستعادة السيادة الفرنسية من خلال حركة الفرنسيين الأحرار.

- في 23 يونيو، خاطب ديغول المارشال بيتان، رئيس فرنسا الفيشية، منتقدًا وقف إطلاق النار ومنفصلًا رسميًا عن الحكومة الفرنسية. واعترف تشرشل بديغول زعيمًا للفرنسيين الأحرار في 28 يونيو، الأمر الذي عزز العلاقة وسمح للفرنسيين الأحرار بالعمل على نحو مستقل تحت القيادة العليا البريطانية أو القيادة العليا للحلفاء.
- شكّل الاعتراف نقطة تحول في قيادة ديغول لحركة الفرنسيين الأحرار ومهد الطريق لجهودهم من أجل استعادة سيادة فرنسا والمشاركة في تحرير البلاد.
- يصف الكتاب حياة شارل ديغول المبكرة وخبراته، موضحةً دوره كجندي ماهر ومحلل استراتيجي قبل عام 1940. فقد أصيب خلال الحرب العالمية الأولى وأسر لاحقًا. وعندما كان في السجن، تعلّم اللغة الألمانية ودرس الصحف الألمانية وانخرط في نقاشات حول الاستراتيجية العسكرية.
- تضمنت رؤى ديغول التنبؤية خلال الحرب توفّعه مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية في النهاية والاعتراف بأهمية الاصطفاف مع القوى المنتصرة. وكان الوحيد بين أقرانه العسكريين الفرنسيين في صحة تحليله.
- طوّر ديغول أسلوبًا تحويليًا في القيادة يتميز باستحضار الرؤى المتجاوزة للواقع وإقناع الآخرين بقبولها. وكان يرى أن السياسة ليست فن الممكن، بل فن الإرادة.
- بعد ذلك يناقش كيسنجر قيادة ديغول وأفعاله خلال الحرب العالمية الثانية، بوصفه قائدًا للفرنسيين الأحرار. وفي صيف عام 1940، عندما أخضع هتلر أوروبا وكانت فرنسا تحت الاحتلال الألماني، أعلن ديغول نفسه قائدًا لفرنسا الحرة. وجاءت شريعته من اقتناعه بأنه يجسّد الوحدة الوطنية في أوقات الخطر.

- كانت ثقة ديغول بنفسه قد مكنته من التفاوض مع قادة، مثل تشرشل وروزفلت وستالين؛ لتأمين مكانة فرنسا في أوروبا المُعاد تشكيلها. وبالاستعانة بمجموعة صغيرة من المستشارين وقوة عسكرية محدودة، ركّز ديغول على إنشاء قاعدة للشرعية من خلال استقطاب قوات الإمبراطورية الفرنسية المقاتلة للوقوف إلى جانب الفرنسيين الأحرار، وكان يهدف إلى تحرير المستعمرات من سيطرة فيشي لكي يضع الأساس لنهوض فرنسا في حقبة السلام ما بعد الحرب.
- كان سلوك ديغول نابعًا من مفهوم «العظمة» لديه؛ وهو دافعٌ للتفوق صبغ السلوك الفرنسي عبر التاريخ. ويوضح القسم التالي الصراعات المعقّدة على السلطة والمناورات السياسية التي انخرطت فيها شخصيات فرنسية مختلفة خلال وبعد غزو الحلفاء لشمال أفريقيا في نوفمبر 1942 في عملية عُرفت باسم «عملية الشُّعلة» في الحرب العالمية الثانية.
- بعد ذلك الغزو، هبطت القوات الأمريكية والبريطانية في دولتي المغرب والجزائر الفرنسيتين. وأدت الأهمية الاستراتيجية للجزائر إلى بروز أسئلة عن إدارة فرنسا نفسها. وادّعى شارل ديغول، زعيم الفرنسيين الأحرار، القيادة، غير أن الحلفاء لم يخبروه بخططهم وجاؤوا بمُنَافس ممكن، الجنرال هنري جيرو، إلى الجزائر.
- عندما هبط الحلفاء في البر الفرنسي الرئيسي في عام 1944، تحوّل ديغول من زعيم مهمّش إلى الشخصية التي لا نزاع حولها لقيادة الفرقة العسكرية الفرنسية التابعة للحلفاء والزعيم المحتمل للحكومة، وكانت فراسته وعزمته السياسيّتان عاملين محوريّين في صوغ مسار فرنسا خلال هذه الفترة الحرجة.
- ينتقل الكتاب إلى مناقشة الفترة المحيطة بتحرير فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، بالتركيز على جهود الجنرال شارل ديغول لتثبيت سلطته

السياسية وصياغة سردية تحرير فرنسا. وعلى الرغم من أن الحلفاء الغربيين تقبلوا سيطرة ديغول على الجيش الفرنسي الموجود، فقد كانوا مترددين في معاملته كشريك على قَدَم المساواة في تحديد شكل الحكومة الفرنسية المستقبلية.

- في يونيو 1944، قام ديغول بزيارة سياسية إلى نورماندي، بعد وقت قصير من هبوط الحلفاء فيها؛ بهدف ترسيخ وجوده واستحداث مكانةٍ لانتصار فرنسي منقطع النظير. وقد قلل من قيمة إسهامات القوات البريطانية والأمريكية ليؤكد على الدور الفرنسي.

- من خلال الخطب والأفعال خلال تحرير باريس، عزز ديغول شرعيته بوصفه قائداً. وتمّ دمج المقاومة في الحكومة المؤقتة الجديدة، ما يعكس هدف ديغول المتمثل في تحقيق الوحدة الوطنية. وكان إيمانه بأهمية الوحدة لتعافي فرنسا ما بعد الحرب قد دفعه إلى تركيز جهوده لتأسيس دولة قوية موحدة.

- ينتقل الكتاب إلى وصف أفعال الجنرال شارل ديغول ومفاوضاته بعد إقامة حكومته المؤقتة في فرنسا بعد تحريرها في عام 1944. وسارع ديغول إلى تأسيس النظام في فرنسا؛ حيث وازنَ بين الأفعال الثأرية ضد قادة فيشي والمتعاطفين مع النازية وأعمال العفو. وكان يهدف إلى إيجاد نظام رئاسي قوي يستطيع توحيد الأمة بما يتجاوز انقسامات الجمهورية الثالثة.

- كان سفر ديغول إلى موسكو في نوفمبر 1944 يهدف إلى استعادة النفوذ الدبلوماسي الدولي لفرنسا، والسعي إلى توطيد فرنسا، بصفتها دولة فاعلة مستقلة لها خياراتها الخاصة، وليست مجرد متوسّل يحاول الدخول في المؤتمرات الدولية. وفي المناقشات مع ستالين، اقترح ديغول إعادة تشكيل أوروبا الوسطى، بما فيها الأراضي الألمانية التي تمّ التنازل عنها لفرنسا.

- يصف هذا القسم قيادة شارل ديغول لفرنسا الحرة وجهوده لإعادة بناء دولة فرنسية قوية وشرعية. وكان هدف ديغول هو استعادة النظام بعد التحرير، وترسيخ فرنسا كشريك على قَدَم المساواة مع الحلفاء، وتأمين هوية فرنسية قوية. وكان يؤمن بمفهوم الدولة، بوصفها ميثاقًا بين الأجيال، في ترديد لفكرة إدموند بيرك عن المجتمع، بوصفه شراكة بين أجيال الماضي والحاضر والمستقبل.
- كانت قيادة ديغول خلال الحرب، وتأكيدَه على وجود بديل فرنسي دولي للدولة الفيشية وتصميمه على القتال من أجل الهوية الفرنسية، عوامل أسهمت في أسطورة الاستمرارية بتصوير فرنسا الحرة على أنها استمرار حقيقي للدولة الفرنسية. وقلل من أهمية فيشي، الأمر الذي مكَّنه من تفكيك الجماعات المتشددة وإقامة نظام عدالة أكثر اتساقًا.
- في المسائل العسكرية، أعطى ديغول الأولوية للاعتبارات السياسية أكثر من الاعتبارات العسكرية المَحْضَة. وعارَضَ سحب القوات الفرنسية من ستراسبورغ حتى عندما أوصى الحلفاء به؛ وذلك بسبب الأهمية التاريخية للمدينة. وقد تمَّ حل هذا النزاع بموافقة أيزنهاور على السماح ببقاء القوات الفرنسية في المدينة وبفضل تحسُّن الظروف العسكرية.
- فُوجئ الكثيرون باستقالة ديغول في يناير 1946. وكان قراره بتقديم استقالته متأثرًا باحتقاره للحكم الذي تهمين عليه الأحزاب ورغبته في تحقيق رؤيته المتمثلة في إقامة سلطة مركزية ذات شرعية واسعة. وأعرب عن أمله في أن يؤدي تنحيه إلى دفع القيادة السياسية إلى الاعتراف بأنه شخص لا غنى عنه وأن تُصلح أساليبها.
- كانت استقالة ديغول المفاجئة، بعد قيادته لفرنسا الحرة، قد أكدت استعدادَه لقطع علاقته مع فرنسا الرسمية إذا لم تُعد قناعاته متمشيةً مع

توجهها، لذلك كان اختياره أن «أنسحب من الأحداث قبل أن تنسحب مني». واستقر في منزل ريفي بسيط يسمى «لا بواسوري» في كومونة كولومبي لي دي زغليز، بعيدًا عن مركز السلطة السياسية. وكانت صورة ديغول كرجل اختاره القدر وزاهدٍ في السلطة في حدِّ ذاتها، تتماشى مع حياته المعزولة خلال هذه الفترة.

- يناقش الكتاب تجربتين مهمتين بعد الحرب اختبرتاهما نفوذ الجمهورية الرابعة وموقفها تجاه مجالات الاهتمام الجيوسياسي السابقة بالنسبة إلى فرنسا. فقد استعمرت فرنسا الهند الصينية خلال الفترة من عام 1862 إلى عام 1907، وأصبحت خلال الحرب العالمية الثانية تحت الإدارة اليابانية والفيشية. وحذّر ديغول الولايات المتحدة الأمريكية لاحقًا من التدخل في المنطقة بناءً على تجربته، وصرّح بأن فرنسا لن تعارض التدخل الأمريكي ولكنها لن تشارك ما لم تندلع حرب عالمية.

- في عام 1956، استولى جمال عبد الناصر على السلطة في مصر، ما أدى إلى زيادة العلاقات المصرية-السوفيتية وتأميم قناة السويس المملوكة لفرنسا وبريطانيا. وسعت بريطانيا إلى استعادة علاقتها المتميزة مع الولايات المتحدة الأمريكية، في حين تنامي إحباط فرنسا، الأمر الذي أحدث صدعًا داخل الحلف الأطلسي استمر حتى عودة ديغول. ويسلط الكتاب الضوء على الديناميكيات المعقّدة المحيطة بالجزائر وعودة شارل ديغول إلى السلطة في فرنسا.

- احتلت فرنسا الجزائر في عام 1830 وأعطيت وضعًا خاصًا بين الأقاليم الفرنسية الخارجية. وبحلول خمسينيات القرن العشرين، كانت الجزائر تضم نحو مليون مستوطن، معظمهم من أصل فرنسي وجنوب أوروبي. وكان يُنظر إلى الجزائر في البداية على أنها تجسيد لإبراز القوة الفرنسية،

ولكنَّ وَضَعَهَا تَغْيِيرٌ عندما بدأت جبهة التحرير الوطني الجزائرية تشنَّ هجمات بطريقة حرب العصابات من أجل إقامة دولة مستقلة. وأعلن رئيس الوزراء منديس فرانس، ارتباط الجزائر المتكامل بفرنسا، لكن التمرد اشتد، وغضب المستوطنون من عدم قدرة الحكومة الفرنسية في باريس على حمايتهم، فشكّلوا مجموعات حراسة أهلية، وحدث استياء عسكري وازداد الاستقطاب.

- اتخذ ديغول موضعًا لنفسه بطريقة ماهرة؛ حيث لم يستولِ على السلطة ولم يصبفَّ مع أي فصيل بعينه. فقد كان يريد إقامة دولة دستورية قوية يمكنها استعادة النظام وإعادة الجيش إلى الثكنات. وناوَرَ الفصائل المختلفة حتى أقنعها بأن ترشيحه هو الحل الأفضل لإزالة مخاوفها. وقام الرئيس رينيه كوتي بدعوة ديغول ليصبح آخر رئيس وزراء في الجمهورية الرابعة. فوضع ديغول دستورًا جديدًا وحدد رؤيته لفرنسا: إصلاح دستوري، وحل القضايا الاستعمارية، وصياغة استراتيجية عسكرية ودبلوماسية قوية، وحماية هذه الاستراتيجية ضد الحلفاء، خصوصًا الولايات المتحدة الأمريكية.
- يلخّص الكتاب نهج شارل ديغول الاستراتيجي تجاه الجزائر وجهوده لإعادة صياغة الحكم الفرنسي والعلاقات الاستعمارية. فقد حدد ديغول ثلاثة عوامل رئيسية لاستعادة الاستقرار، هي: تغيّر النظام السياسي الفاقد للمصادقة، واستعادة مبدأ الطاعة العسكرية، ووضع نفسه في موضع وسيط التغير.
- عندما تولى ديغول منصبه، كان لا بد من تحويل غموضه التكتيكي الأوّلي إلى خطة استراتيجية. وكانت الإدارة الفرنسية المعقّدة في الجزائر والحرب الدائرة قد حثّمت إحداث تحوّل تدريجي، وليس تغييرات مفاجئة. وأدى التزام الجيش بالحفاظ على الجزائر الفرنسية إلى وصوله إلى السلطة، وكان يعتقد أن إرجاع الجيش إلى مبادئ السياسة الوطنية يتطلب عملية تدريجية.

- أدخل ديغول مفهوم «المجتمع الفرنسي» لمعالجة الجدالات الدستورية بين القادة الأفارقة. ويمكن للمستعمرات الانضمام إلى هذا المجتمع، أو الاحتفاظ بروابط مع فرنسا، أو اختيار الاستقلال الفوري. واختار معظمها البقاء في المجتمع الفرنسي، ما عزز النفوذ الفرنسي. وانخرط ديغول في حملة عبر القارات في عام 1958 لتأمين الدعم الأفريقي لهذا المفهوم.
- في عام 1959، حدد ديغول خيارات الجزائر على التلفزيون، وهي: الاستقلال، و«الفرنسية» (الاندماج)، وحكومة يقودها الجزائريون بمساعدة فرنسية (مشاركة). وكان يفضل الخيار الثالث، مع الاعتراف بإمكانية الانفصال الكامل للجزائر. وواجه معارضة من المستعمرين الفرنسيين وكابد أحداثًا مثل متاريس الجزائر العاصمة، ومحاولة انقلابية في عام 1961.
- ظهرت قيادة ديغول الكاريزمية عندما أمر بإزالة المتاريس وهذا الوضع. وفي عام 1962 تم التفاوض سرًا على اتفاقيات إيفيان بين الوزراء الفرنسيين وممثلي جبهة التحرير الوطني الجزائرية، ما أدى إلى استقلال الجزائر. وحظيت الاتفاقيات بالتأييد في استفتاء أُجري في فرنسا والجزائر، ولكن حقوق المعادن الموعودة لم تتحقق.
- في سبتمبر 1958، اتخذ شارل ديغول خطوة مهمة في إعادة صياغة العلاقات الفرنسية-الألمانية، وذلك بعد ثلاثة أشهر فقط من توليه منصب رئيس الوزراء. فمن الناحية التاريخية، كانت فرنسا وألمانيا عدوين تقليديين، ولكن ديغول ابتدر تغييرًا بتوجيه دعوة إلى المستشار الألماني، كونراد أديناور، لزيارة سريعة غير مسبوقة في مقره «لا بواسوري» في كومونة كولومبي لي دي زغليز.
- سعى ديغول إلى تغيير كامل تجاه العداوة التاريخية بين بلديهما، بدلًا من التركيز على اتفاقيات معينة. واقترح تقديم الدعم الفرنسي لإعادة تأهيل

ألمانيا وسعيها لامتلاك هوية أوروبية. وفي مقابل ذلك، طالب ألمانيا بقبول الحدود الأوروبية القائمة، وإنهاء سعي ألمانيا إلى الهيمنة على أوروبا، بالإضافة إلى شروط أخرى، مثل حسن النية في العلاقات مع الشرق، ونبذ الأسلحة الذرية، والتهمل بشأن إعادة توحيد ألمانيا.

- كانت نظرة ديغول إلى العلاقات الدولية مختلفة اختلافاً ملحوظاً بسبب تجارب فرنسا التاريخية، فقد رأى أن التعاون بين الدول شيء غير طبيعي؛ إيماناً منه بأن المنافسة أمرٌ متأصل. وعلى الرغم من أن واشنطن سعت إلى إقامة كيان تحالفي لتشجيع العمل المشترك والحد من المبادرات المستقلة، فقد أكد ديغول أهمية الحفاظ على حرية العمل الفرنسية والهوية الفرنسية، حتى داخل أوروبا الموحدة.

- كان موقف ديغول الحازم نتاجاً للثقة الشخصية، والوعي التاريخي، وضعف فرنسا. وقد تشكك فيما إذا كان بإمكان الولايات المتحدة الأمريكية الالتزام بالدفاع الأوروبي إلى ما لا نهاية، خصوصاً فيما يتعلق بالأسلحة النووية. ورفض اقتراحات الانسحاب المتناسق للقوات الأمريكية من أوروبا الوسطى؛ لأن ذلك سيترك فرنسا عرضةً للخطر.

- فور تولي ديغول منصبه، أعطى الأولوية لتطوير البرنامج النووي العسكري الفرنسي، واقترح إعادة تنظيم استراتيجية حلف الناتو النووية، داعياً إلى ترتيب ثلاثي بين فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية؛ بحيث يمنح هذا الترتيب كل دولة حق النقض بشأن استخدام الأسلحة النووية ما لم تكن رداً على هجوم مباشر، وتقوم إدارة هذا الترتيب بوضع استراتيجية مشتركة لمناطق خارج أوروبا، إلا أن هذا الاقتراح لم يجد أي ردٍّ من أيزنهاور وماكميلان.

- سعى ديغول إلى بناء رادع نووي مستقل لتقوية مكانة فرنسا في العالم. وكان يؤمن بأنه من المهم لفرنسا أن تكون قوية وأن تحافظ على سيادتها،

خصوصًا في مواجهة التهديدات المحتملة. وبحلول عام 1968، أجرت فرنسا أول اختبار نووي حراري لها، الأمر الذي عزّز مكانتها كقوة نووية مكتملة.

- أدى ظهور الأسلحة النووية إلى تغيير الأهداف التقليدية للتحالفات، والدول التي تعتمد على الضمانات النووية، مثل تلك التي تعتمد على الضمانات الأمريكية، لم تجد حاجة إلى نشر قوات إضافية وجعلت من مصداقية هذه الضمانات محورًا لأمنها. واجتاز ديغول حالات الغموض وانعدام اليقين في هذا المشهد الجديد.

- سعى ديغول إلى إنشاء رادع نووي فرنسي مستقل؛ لأنه يؤمن بأن القيادة تتطلب استخلاص الهدف الوطني من علاقات القوة والسياق التاريخي. وكان رأي ديغول في الالتزامات الدولية، أنها التزامات طارئة؛ بسبب عدم القدرة على التنبؤ بالأحداث والظروف المتغيرة.

- بحلول أواخر ستينيات القرن العشرين، نجح شارل ديغول في إحياء فرنسا وإنعاشها، وأعاد مؤسساتها، وجعل منها لاعبًا رئيسيًا في نظام أوروبي جديد. لقد مارس أسلوبًا في فن الحكم يُذكر بأسلوب الكاردينال ريشيليو في القرن السابع عشر. وبعد أن أمضى عقدًا في منصب الرئاسة، بدأت حماسته تضعف، وظهرت تكهنات عن استقالته. وفي عام 1968 كانت الاحتجاجات والإضرابات الواسعة الانتشار تبدو نذيرًا بنهاية رئاسته.

- وبرغم أنه ربما كان متعرجًا وباردًا، فإن حدسه الاستراتيجي جعله متميزًا. وبرغم صدامات مع أقران من قبيل تشرشل وروزفلت وكينيدي، فإن تقييمات ديغول بشأن المسائل الاستراتيجية الرئيسية اتسمت بالصواب دائمًا. ويتسم إرث ديغول بأنه مصدر إلهام أكثر منه عقائد جامدة، فهو دليل على أن القادة أصحاب الرؤية يشكّلون التاريخ من خلال دورهم كقدوة. ولا تزال السياسة الخارجية الفرنسية متأثرة به، ما يجعل إرثه استثنائيًا.

- كان لديغول أهداف رؤيوية، لكنه كان يستخدم أسلوب رجل الدولة المتأني. وكان كثيراً ما يتصرف من طرف واحد، وكان يفاوض على تعديلات على أهدافه وليس تغييرات عليها. وكان تشرشل يسلم بإمكانات ديغول القيادية، وكان يدعمه برغم الصراعات. وكان تشرشل يعتبر القيادة عملية تاريخية، في حين أن ديغول كان يعتبرها واجباً يتولد من عبء العظمة. كلاهما أنقذ مجتمعه، بيد أن أسلوب تشرشل نبع من التقاليد، في حين أن ديغول كان متميزاً ويستند إلى المبادئ.

- يبرز شارل ديغول كشخصية متفردة في التاريخ؛ حيث يتميز بالانعزال والشجاعة والالتزام بقيمه ورؤيته. وبرغم انفصاله الظاهر، فإنه كان يحمل مخزوناً من العاطفة واللطف، يظهر بوضوح في علاقته مع ابنته المعاقة «آن». فقد كان وجود «آن» مصدر إلهام بالنسبة إليه، وقد تأثر بوفاتها أشد التأثر.

الفصل الثالث: ريتشارد نيكسون: استراتيجية التوازن

- كان ريتشارد نيكسون الرئيس الأكثر مثيرًا للجدل في التاريخ الأمريكي، والرئيس الوحيد الذي اضطر إلى الاستقالة من منصبه. كان له تأثير كبير على السياسة الخارجية أثناء فترته وفي أعقابها، كرئيس أعاد تشكيل نظام عالمي فاشل في ذروة الحرب الباردة.
- أنهى نيكسون التورط الأمريكي في فيتنام، ورَسَّخ مكانة الولايات المتحدة، بوصفها القوة الخارجية المهيمنة في الشرق الأوسط، وفرض هيكلًا ثلاثيًا على الحرب الباردة الثنائية القطب سابقًا من خلال الانفتاح على الصين، ما قوّض في نهاية المطاف المركز الاستراتيجي للاتحاد السوفيتي.
- شغل هنري كيسنجر منصب مستشار الأمن القومي لنيكسون في الفترة من عام 1968 إلى عام 1974؛ حيث شارك عن قرب في قيادته وما اتخذته من قرارات. وفي الأشهر السابقة على الانتخابات الرئاسية لعام 1968، بدأت التحديات التي تواجه رئاسته تتضح في ثلاثة مساحح استراتيجية، هي: أوروبا، والشرق الأوسط، وشرق آسيا.
- عندما جاء نيكسون إلى الحكم في عام 1969، كانت الحرب الباردة قد دخلت مرحلة النضج الكامل. وكان الصراع الداخلي حول فيتنام يقترب من ذروته؛ حيث تعالت نداءات في بعض الأوساط من أجل الانسحاب الأمريكي على المستويين العسكري والسياسي. وكانت الولايات المتحدة والاتحاد

السوفيتي عاكفين على نشر صواريخ ذات أحمال أكبر وأكثر دقة وأبعد مدى (عبر القارات).

- بحلول أغسطس 1969، احتل الاتحاد السوفيتي، ومع دول أوروبا الشرقية التي تدور في فلكه، تشيكوسلوفاكيا. وفي ألمانيا، استمر التهديد السوفيتي لبرلين الغربية؛ حيث لاح من حين لآخر من خلال تهديد موسكو بتضييق الخناق على المدينة المحاصرة. وبدأت أوروبا واليابان، وكلتاها تعافت من دمار الحرب تحت المظلة الأمنية للولايات المتحدة، منافسة الولايات المتحدة اقتصاديًا واعتماد تصوراتهما الخاصة، والمتباينة أحيانًا، للنظام العالمي الناشئ. وفي الوقت نفسه أصبحت جمهورية الصين الشعبية خامس بلد يمتلك أسلحة نووية.

- في هذه الأثناء، واجه نيكسون وضعًا متأزمًا في الشرق الأوسط. وبرغم المكانة التاريخية البارزة لكل من فرنسا وبريطانيا في الشرق الأوسط، فإن كليهما أصبحت بالتدريج أقل قدرة على بسط قوتها هناك بعد استنزافهما في حربين عالميتين. في البداية، شهدت المنطقة ثورات محلية أججتها حركات معادية للاستعمار، تحولت فيما بعد إلى صراعات أكبر داخل العالم العربي، وبين الدول العربية ودولة إسرائيل.

- إضافةً إلى جميع هذه الشواغل، تزامن وصول نيكسون إلى الحكم مع المأزق الدموي في فيتنام. وكانت إدارة جونسون السابقة قد أرسلت 500 ألف جندي أمريكي إلى فيتنام، في حين أن 50 ألفًا آخرين كانوا في الطريق وقت تنصيب نيكسون. وكان على نيكسون إخراج الولايات المتحدة من حرب لا يمكن حسمها، وذلك وسط اضطرابات داخلية لم تشهدها الولايات المتحدة منذ الحرب الأهلية.

- كان الموقف الذي يواجهه نيكسون غير مسبوق من حيث إنه للمرة الأولى ظهرت نخبة وطنية تؤمن بأن الهزيمة في الحرب حتمية من الناحية

الاستراتيجية ومرغوبة في الوقت نفسه من الناحية الأخلاقية. وكان هذا الاعتقاد يمثل انهيار الإجماع القائم منذ قرون، الذي مفاده، أن المصلحة القومية تمثل غاية مشروعة، بل وأخلاقية.

- من بعض النواحي، تتزامن هذه المجموعة من المعتقدات مع عودة اتجاه انفصالي سابق لا يُعتبر بمقتضاه «تورط» أمريكا في الأزمات الخارجية أمرًا غير مرغوب فيه من أجل رفاه البلد فحسب، وإنما أمرٌ يقوِّض شخصيتها أيضًا. فقد كانت هذه النزعة الانعزالية الجديدة تقوم على أن أمريكا نفسها أصبحت غارقة في الفساد؛ بحيث إنها لم تعد قادرة على العمل كمرشد أخلاقي في الخارج. ولم يكن أنصار هذا الموقف ينظرون إلى مأساة فيتنام ضمن إطار جيوسياسي، ولا على أنها صراع أيديولوجي، وإنما كمبشّر بتنفيس وطني من شأنه إطلاق تحوُّل طال انتظاره نحو الداخل.

- كان نيكسون يؤمن بأن أمريكا تقف عليها مسؤولية خاصة للدفاع عن قضية الحرية على الصعيد الدولي، وخصوصًا حرية حلفاء أمريكا الديمقراطيين. وكان مدفوعًا لدى السعي إلى إنهاء الصراع في فيتنام، الذي ورثه، بالأثر المحتمل للانسحاب الأمريكي على مصداقية البلد كحليف، وكذلك كقوة وحضور في العالم كله.

- اعترض نيكسون على الافتراضات الأمريكية السائدة في مجال السياسة الخارجية. التي كانت مدرسة فكرية في ذلك الوقت، كما هي الحال الآن، ترى أن الاستقرار والسلام هما الحالة الطبيعية للشؤون الدولية، في حين أن الصراع هو نتيجة إما لسوء الفهم أو للشر. ومجرد هزيمة القوى العدائية على نحو حاسم، يعود التناغم أو الثقة المتأصلة إلى الظهور. وكان نيكسون يُعتبر السلام حالة من التوازن الهش والفضاض بين القوى العظمى، وهو توازن يشكّل بدوره عنصرًا أساسيًا في الاستقرار العالمي.

- سعى نيكسون إلى استعادة مفهوم توازن القوى، واعتبر أن المصلحة القومية هي الهدف الرئيسي الذي يجب أن تسعى الاستراتيجية الوطنية والسياسة الخارجية إلى تحقيقه. وانطلاقاً من مبدأ أن المصالح القومية كثيراً ما تكون متضاربة ولا تنطبق عليها دائماً نتيجة «الكل رابح»، فقد كان يعتبر أن مهمة رجل الدولة تكمن في استبانة تلك الخلافات وإدارتها، وهو ما يمكن تحقيقه إما بتخفيف حدتها أو، لدى الاقتضاء وكماذاً أخيراً، بالتغلب عليها بالقوة.
- كانت سياسة نيكسون الخارجية تقوم على توجُّه ذي ركبتين تجاه الأعداء: أولهما، هو بناء القوة والأحلاف الأمريكية، وخصوصاً التحالف الأطلسي. والثاني، هو الحفاظ على قنوات الحوار مع الأعداء، مثل الاتحاد السوفيتي والصين، من خلال «حقبة المفاوضات».
- إن الجمود الدبلوماسي بين كبار القادة يُعقِّد أي ضبط ضمن الحوكمة الداخلية لكلا الجانبين، وهو سبب آخر يستدعي أن تُعالج المسائل التفصيلية على المستويات الأدنى؛ حيث تكون الخبرة الفنية أكثر تركيزاً ويكون التوفيق أقلَّ تهيئاً على المستوى الشخصي. وكانت قوة نيكسون كرجل دولة تكمن في طريقيّ الاستراتيجية الجيوسياسية؛ أي القوة التحليلية في التصميم، والجرأة العظيمة في التنفيذ. كان أدأؤه يبلغ ذروته في الحوارات بشأن الأهداف الطويلة المدى وفي جهوده لإقناع نظيره في المسائل ذات البُعد الاستراتيجي.
- سعى نيكسون، من خلال مزيج من الدبلوماسية والضغط، إلى إقناع موسكو بوقف دعمها لهائوي في مقابل تنازلات تقدّمها إدارته للفيتناميين الشماليين، ربما عن طريق موسكو. وعلى نحو متزامن، كانت توضع خيارات من أجل التصعيد العسكري، تتألف أساساً من فرض حصار واستئناف القصف في إطار عملية Duck Hook. وإذا رفضت موسكو العرض، كان نيكسون سيسعى لفرضه بالقوة العسكرية.

- من ناحية أخرى، كان نيكسون يرى أن على الولايات المتحدة «تفادي السياسات من النوع الذي جعل الدول الآسيوية شديدة الاعتماد علينا؛ بحيث إننا ننجز إلى صراعات من قبيل الصراع الذي نخوضه في فيتنام». وأصبحت تلك النظرية تُعرف باسم «عقيدة نيكسون» التي تتضمن ثلاثة مبادئ رئيسية، هي: (1) التزام الولايات المتحدة بجميع التزاماتها التعاهدية. (2) توفير الدرع الواقعي إذا هددت أيّ قوة نووية حرة أيّ بلد حليف أو بلد تُعتبر الولايات المتحدة أن بقاءه أمرٌ حيوي بالنسبة إلى أمن الولايات المتحدة أو أمن المنطقة كلها. (3) في الحالات التي تنطوي على أشكال أخرى من الاعتداء (أي الاعتداء بالأسلحة التقليدية من جانب قوى غير نووية)، توفير المساعدة العسكرية والاقتصادية عند الطلب.

- في خضم تحقيقات (ووترجيت)، لم يكن الجمهور المُجهَد ليدعم صراعات إضافية في آسيا. فقد قلَّص الكونغرس المساعدات الاقتصادية والعسكرية إلى جنوب فيتنام بواقع النصف. وأشعلت حرب فيتنام انقسامًا داخليًا في المجتمع الأمريكي دامت آثاره إلى اليوم. فقد أشعل الصراع نوعًا من الجدل العام لا يركّز على الجوهر بقدر ما يركّز على الدوافع والهويات السياسية.

- تكمن أهمية نيكسون كرجل دولة في توجُّهه الجيوستراتيجي أساسًا. فبعد الرحلة التي قام بها إلى أوروبا في أوائل عام 1969، استهلَّ جولته بهجوم دبلوماسي لإضعاف سيطرة موسكو على توابعها في أوروبا الشرقية من خلال جذبهم إلى مدار الدبلوماسية الأمريكية.

- كان هدف نيكسون الاستراتيجي يكمن في زيادة التكلفة التي سيتكبدها السوفييت من جراء احتفاظهم بإمبراطوريتهم الأوروبية؛ بحيث يستدعي استمرارهم في ذلك تحويل الأموال والانتباه عن أهداف رئيسية أخرى.

- على مدى الفترة المتبقية من رئاسة نيكسون، أُقيمت اتصالات مباشرة مع موسكو من خلال ما سُمِّي «القناة»، وهي قناة بين كيسنجر ودوبرينين (السفير السوفيتي لدى الولايات المتحدة) أنشئت بين نيكسون والقيادة السوفيتية. وتبيّن أن أحد المواضيع الرئيسية هو أثر المخزونات الكبيرة من الأسلحة النووية لدى البلدين على النظام العالمي وكيفية تجنّب وقوع كارثة عالمية، سواء على نحو استباقي أو ضمن صراع متفاهم بينهما.

- أصبحت مسألة مبكرة بالنسبة إلى نيكسون تتمثل فيما إذا كان يجب المُضيّ في مفاوضات الحد من التسلح مع السوفييت من الأساس. ولم يوافق نيكسون في نهاية المطاف على إطلاق مفاوضات الحد من الأسلحة الاستراتيجية مع السوفييت إلا بعد أن استقر على استراتيجية بخصوص فيتنام أثناء قمة موسكو في عام 1972. وتمخّضت القمة عن أول اتفاق شامل للحدّ من الأسلحة الاستراتيجية خلال الفترة النووية. وقضى الاتفاق بقصر الدفاع بالصواريخ بالستية على موقعين (معاهدة حظر الأسلحة البالستية)، وبوقف أعداد الأسلحة الاستراتيجية الهجومية عند المستويات القائمة (سولت 1)، وأرست سبلاً لمعالجة الأحداث التي تطرأ في البحر والحوادث النووية.

- كتب نيكسون، قبل وصوله إلى سدة الرئاسة في عام 1967، مقالة في مجلة *Foreign Affairs*، أشار فيها إلى عدم إمكانية ترك الصين إلى الأبد خارج الأسرة الدولية، وأكد أن السلام العالمي سيستفيد إذا أمكن أن تكبح الصين دعمها لحركات التمرد حول العالم وأن تقيم يومًا علاقات دبلوماسية مع الغرب. وبعد سلسلة من الاتصالات السرية عن طريق مبعوث من واشنطن إلى العاصمة الباكستانية إسلام آباد، ومن ثم من باكستان إلى بكين، مع اتباع الصين المسار نفسه في الرد، وُجّهت دعوة إلى نيكسون لزيارة الصين في عام 1971 لمناقشة مسألة تايوان ومسائل ملحة أخرى.

- تضمّن بيان شنغهاي، الذي صدر في نهاية زيارته، اتفاقًا بين الطرفين يقضي بمعاملة تايوان باعتبارها مستقلة في المستقبل المنظور. ويقرّ الطرفان بمبدأ الصين الواحدة، وتُحجّم الولايات المتحدة عن إصدار بيانات توحى بوجود بلدين في الصين، ولا يسعى أيٌّ من الطرفين إلى فرض تفضيلاته.
- وعلى مدى عشرين عامًا بعد زيارة نيكسون، أثبتت الولايات المتحدة والصين سياسة تعاونية واسعة النطاق لاحتواء الاتحاد السوفيتي. وخلال تلك الفترة، شمل التعاون بين الولايات المتحدة والصين المجال الاستخباراتي، وإن كان على نطاق محدود. ومثّل بناء علاقة تعاون مع الصين لمواجهة الاتحاد السوفيتي مصلحة أمريكية طاغية أثناء الحرب الباردة. أما اليوم، فإن أي سياسة أمريكية تجاه الصين يجب أن تراعي اقتصاد الصين الهائل، الذي يقترب من الاقتصاد الأمريكي، وقوتها العسكرية المتصاعدة، ومهاراتها الدبلوماسية التي تتجلى من خلال الحفاظ على آلاف السنين من الثقافة المتميزة.
- وفي الوقت الذي بدأ فيه الاتحاد السوفيتي يستكشف سبل التعايش مع الولايات المتحدة، كانت المساعدات والأسلحة تتدفق من موسكو إلى الدول العربية الحليفة لها، ما زاد من احتمالات وقوع مواجهة جديدة. وفي عام 1972، واصل الرئيس المصري أنور السادات اتباع استراتيجية سابقة القائمة على الاعتماد على السوفييت لجعل الولايات المتحدة تضغط على إسرائيل للانسحاب من سيناء. لكن في ذلك الصيف، طرد السادات على نحو مفاجئ أكثر من 20 ألف مستشار عسكري سوفيتي كانوا قد نُشروا في مصر، وأمر بالاستيلاء على منشآتهم ومعداتهم الثقيلة. وفي فبراير 1973، أرسل مستشاره الأمني حافظ إسماعيل إلى البيت الأبيض لاستكشاف موقف أمريكا إزاء مفاوضات جديدة.

• أبلغ نيكسون حافظ إسماعيل أن الولايات المتحدة ستطلق مجهوداً جديداً من أجل السلام بعد الانتخابات الإسرائيلية في نوفمبر، لكن بالنسبة إلى السادات كان ذلك احتمالاً ينطوي على قدر كبير من عدم اليقين. وفي 6 أكتوبر، المصادف ليوم الغفران، وهو أقدس يوم في الرزنامة اليهودية؛ حيث يكون اليهود كافة في الكنيس، أطلق السادات مفاجأة صادمة لكل من إسرائيل والولايات المتحدة. فقد عَبرَت القوات المصرية قناة السويس، وتقدّمت القوات السورية في مرتفعات الجولان. ولم يكن الإسرائيليون، وكذلك الأمريكيون والعالم، مدركين للهجوم المفاجئ أو مستعدين له.

• في هذه الأثناء، كان نيكسون يتعامل مع فضيحة (ووترجيت) ونتائجها. واضطلعت الولايات المتحدة، برغم هذا المسلسل من الكوارث السياسية الداخلية، بدور رئيسي في التوصل إلى وقف لإطلاق النار وإطلاق عملية سلام في الشرق الأوسط دامت على مدى العقود القادمة. ولم يتخلَّ نيكسون مطلقاً عن الأهداف الاستراتيجية الرئيسية، وهي مواصلة اتباع دبلوماسية إبداعية مع الدول العربية، والحفاظ على أمن إسرائيل، وإضعاف موقف الاتحاد السوفيتي، والخروج من الحرب بدبلوماسية أمريكية مستدامة تعمل نحو تحقيق السلام.

• في النصف الثاني من القرن العشرين، بدأت الحضارات الآسيوية التقليدية، مثل الهند والصين، الدخول في النظام العالمي كقوى عظمى ذات جدارة؛ حيث أبدت قدرة على تحدي التوازن العالمي على نحو مستقل. واندلعت أزمة سياسية في باكستان جراء المطالب البنغالية باستقلال شرق باكستان، وهي مطالب أبرزتها نتائج الانتخابات العامة التي أُجريت في ديسمبر 1970. وأدت الأزمة اللاحقة، التي جرّت شبه القارة إلى صراع استمر من مارس إلى ديسمبر 1971، إلى حرب بين الهند وباكستان، وانتهت بتحوّل الجناح الشرقي من باكستان إلى دولة بنغلاديش الوليدة.

- وسرعان ما أدت الاضطرابات الإقليمية أساسًا في جنوب آسيا بين باكستان والهند إلى تدخّل الولايات المتحدة والصين وروسيا. وبذلك مثلت المشكلة المستجدة في شرق باكستان تطورًا غير مسبوق؛ حيث تحولت إلى أزمة تتدخل فيها ثلاث قوى عظمى تمتلك أسلحة نووية، جميعها كمتنافسين متساوين وذوي سيادة. وكان نيكسون واقفًا تحت ضغط داخلي كبير للوقوف بجانب الهند التي كان النظام الديمقراطي لديها يحظى بإعجاب واسع النطاق.

- مثلت الأزمة في بنغلاديش خطوة رئيسية في تحوّل الحرب الباردة من هيكل جامد ثنائي القطب إلى توازن عالمي أكثر تعقيدًا يضم آسيا كعنصر صاعد. وبفضل اجتماع الدبلوماسية والتهور وضبط النفس وممارسة كل منها في اللحظات المناسبة، تحولت احتمالات وقوع حرب عالمية بسبب بنغلاديش من شيء ممكن إلى شيء غير متصوّر. وفي نهاية المطاف، جنى كل طرف مشارِك في الأزمة نصيبًا كافيًا (أو خسر قليلًا في حالة باكستان)؛ بحيث إن البلدان الكبرى لم يُخلَّ أحدها بالترتيب المتوصّل إليه على مدى عقود لاحقة.

- كان نيكسون يعمل انطلاقًا من الاعتقاد بأن السلام هو النتيجة الهشة والعبارة على نحو خطير للعمل الدؤوب للحنكة السياسية في عالم يكاد فيه التوتر والصراع أن يكونا قدرًا محتومًا. وتجلّت رؤيته للسلام أيضًا في الطريقة التي أعاد بها تشكيل النظام العالمي من خلال دمج التعددية القطبية في النظام العالمي من خلال الانفتاح على الصين، وفي الوقت نفسه السعي إلى تحقيق المصالح الأمريكية والاستقرار الشامل.

- كان نيكسون ناجحًا لبعض الوقت من خلال تعديل دور أمريكا، من الهيمنة المتعثرة إلى القيادة الإبداعية، لكن مأساة ووترجيت، مقترنةً بسقوط

سايغون بعد ذلك بثمانية أشهر، حالت دون أن يحقق نهجه في مجال السياسة الخارجية التأثير الذي يستحقه على التفكير الأمريكي. وفهم أن مركز أمريكا الاستثنائي يُعزّي إلى الممارسة الحاذقة والمحسوبة لقوتها الكامنة بقدر ما يُعزّي إلى عزمها على تحقيق مبادئها التأسيسية.

- تتطلّب إدارة النظام العالمي مراعاة أمريكية دقيقة للأحداث المستجدة والغامضة في أحيان كثيرة. وهي تتطلب أيضًا التحلي بقدرة على تحديد الأولويات الاستراتيجية. وعلينا أن نسأل أنفسنا: ما هي التهديدات والفرص التي تتطلب حلفاء؟ وأيّها كبيرة الأهمية بالنسبة إلى مصالح أمريكا وأمنها القومي؛ بحيث إننا سنتعامل معها وحدنا عند الضرورة؟ وعند أي مرحلة يقوِّض الالتزام المتعدد الأطراف القوة، ومتى يؤدي إلى مضاعفة الأصوات المعارضة؟ ومن أجل تحقيق هدف السلام، لا بد أن تفسح الأشكال التصادية المجال للمنافسة لقدر من المشروعية المشتركة.

الفصل الرابع: أنور السادات: استراتيجية التجاوز

- كانت انتصارات أنور السادات - رئيس مصر ما بين عامي 1970 و1981 - مفاهيميةً بطبيعتها، وقد أدى اغتياله إلى اختزالها. ولكن ورثته الإقليميين - وهم قليلو العدد - لم يعتمدوا من جهوده سوى الجوانب العملية، وليس الرؤية، ولم يتحلوا مثله بالشجاعة الراسخة التي بعثها فيهم. ونتيجة لذلك، فإن إنجاز العظيم - ألا وهو إرساء السلام مع إسرائيل - لم يُعدّ يتذكره إلا قليلون، كما أن غايته الأخلاقية الأعمق يكاد الجميع يتجاهلونها، رغم أنها هي التي شكلت الأساس لما جاء بعدها، مثل اتفاقات أوسلو بين الإسرائيليين والفلسطينيين، واتفاق السلام بين إسرائيل والأردن، والاتفاقات الإبراهيمية لعام 2020.
- لقد طرح السادات مفهوم السلام، وهو ما يزال حُلماً لم يخرج إلى حيز الوجود. ولا توجد شخصية معاصرة أخرى في الشرق الأوسط كان لديها طموحات مشابهة، أو أبدت القدرة على تحقيقها. إن مهمة السادات الرئيسية - سواء قبل رئاسته أو أثناءها - جاءت تعبيراً عن تطلع الأمة المصرية إلى تحقيق الاستقلال الدائم.
- مما تجدر الإشارة إليه، أن السادات، كرئيس لمصر، لم يعمل تحت راية واحدة شأن أغلب معاصريه الإقليميين من القادة الوطنيين المخلصين في سعيهم لتوحيد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. بل إن السادات - بعد

تحليل توجهاتهم إزاء النظام الدولي - تحوّل كُليّةً نحو أساليب الدبلوماسية كما هي ممارسة في الغرب، بمعنى أن استراتيجيته لتحقيق السيادة الوطنية كانت مقترنةً بالاصطفاف مع الولايات المتحدة، وقد جعل لها الأولوية على اتجاهاً القومي العربي وعدم الانحياز، اللذين كانا يطغيان على العالمين العربي والإسلامي في ذلك الوقت.

- في فترة شبابه، بدأت ميوله الوطنية تتحول إلى فلسفة سياسية وشعور بالذات. كان يؤمن بمصر الإسلامية، وكان من أشد المعجبين بالشيخ حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، الذي كان يتخذ موقفًا صارمًا بشأن تحقيق الاستقلال الحقيقي. ومن ثم فإن مشاعر السادات المناهضة للبريطانيين قادتته إلى طريق العنف الثوري، فأمضى فترات متقطعة في السجن ما بين عامي 1942 و1948، بسبب إدانته بتهمة التورط في اغتيال وزير المالية الموالي للبريطانيين آنذاك أمين عثمان.
- نتيجة لإقامة دولة إسرائيل في 14 مايو 1948، واعتراف الرئيس الأمريكي هاري ترومان الفوري بها، تدخلت الدول العربية المجاورة في الحرب الأهلية التي كانت دائرة بين العرب واليهود في فلسطين تحت الانتداب. وأعقب ذلك فترة من الحروب المتقطعة دامت خمسة وعشرين عامًا.
- شكلت هزيمة مصر في حرب عام 1948 مأزقًا بالنسبة لجامعة الدول العربية؛ بسبب إخفاقها في التنسيق بين الجيوش الوطنية المتفرقة لأعضائها. كان قدامى حرب عامي 1948 و1949 - بمن فيهم الرئيسان المقبلان محمد نجيب وعبد الناصر - يؤمنان بأن الهزيمة سببها غياب الوحدة العربية. وقد أسفر ذلك الأمر عن بزوغ مشروع جديد للقومية العربية، يقوم على تكوين اتحاد عسكري بين الدول العربية، مهمته الأساسية مواجهة إسرائيل ومحاربة التأثير الغربي.

- عندما خرج السادات من السجن وانضم إلى مجموعة «الضباط الأحرار»، كان قد مر مرحلة تحول كبير. فبدلاً من أن تفتز همته في حبسه الانفرادي، توّلد عنده ما أسماه لاحقاً «قوة داخلية». صحيح أنه ظل مخلصاً للقضية الثورية، لكنه لم يَعدْ يتقيد تَقْيِيداً أعمى بأفكار زملائه، بل أصبح لديه القدرة على إعادة التفكير في معتقداته السابقة.

- بعد احتجاجات «السبت الأسود» في عام 1952، التي أفضت إلى تشكيل وحل ثلاث حكومات متتابة، رأى الضباط الأحرار أن الموقف قد بلغ نقطة حاسمة، كان فيها الشعب مُتَحَفِّزاً والحكومة بئسة. وعلى أمل «تحييد البريطانيين»، عن طريق إقناع حليف بريطانيا الأمريكي بالأمر الواقع، بعث الضباط الأحرار برسالة إلى السفير الأمريكي بأن تحركاً كبيراً أصبح وشيك الحدوث. وفي 23 يوليو 1952، قاموا بانقلاب ناجح ضد الملك فاروق، الذي اضطر إلى التنازل عن العرش لمصلحة ابنه القاصر الملك فؤاد الثاني. وكان السادات هو من صاغ بيان تنازل الملك، وهو من أعلن انتصار الضباط عبر المذياع.

- عُيِّن مجلس وصاية لإدارة المملكة، كما جرت العادة في حالة الملوك القُصَّر. لكن السلطة الحقيقية كانت تكمن في يد مجلس قيادة الثورة الذي كان يرأسه آنذاك اللواء محمد نجيب. وفي عام 1953، قام مجلس قيادة الثورة بإلغاء المَلَكِيَّة، وأعلن النظام الجمهوري في مصر. وفي عام 1954، انتُخب جمال عبد الناصر رئيساً، وأصبح السادات نائباً للرئيس في عام 1969.

- أدت حرب الأيام الستة إلى مضاعفة إسرائيل أراضيها بأكثر من ثلاثة أمثالها، وتمكنت من نشر قواتها على الضفة الشرقية لقناة السويس، موجهةً بذلك إهانة إلى جيرانها العرب. حاول عبد الناصر رد اعتباره واستعادة مجد مصر السابق عن طريق شن حرب استنزاف ضد إسرائيل. لكن تورط مصر في

حرب اليمن، ثم في حرب الأيام الستة، ومن بعدها حرب الاستنزاف (التي استمرت حتى عام 1970)، كل ذلك كان له أثر تراكمي تَمَثَّل في استنزاف موارد مصر، وأدى إلى زيادة اعتمادها على الاتحاد السوفيتي.

- بعد وفاة عبد الناصر في عام 1970، وصل السادات إلى سُدَّة الحكم. وقد تبين له من حرب الأيام الستة خطورة تقديم القومية العربية على المصلحة الوطنية، وأراد انضمام مصر الكامل إلى النظام العالمي. كان توسيع نطاق التواصل مع العالم العربي مجرد التزام تكتيكي، ولم يكن التزامًا حضاريًا.

- نظرًا لطبيعته الهادئة، والصدقة التي كانت تربطه بعبد الناصر، لم يكن لدى السادات حافز لبناء قاعدته السياسية الخاصة. وكان يمضي الجزء الأكبر من وقته في التأمل والصلاة أكثر من الوقوف على منصات الخطابة. وكان هناك الكثير من المصريين يعتقدون أن السادات لن يكون أكثر من مجرد قائد انتقالي، بل إن زملاءه في مجلس قيادة الثورة كانوا يتصورون أيضًا أن التحكم فيه أمر سهل. وأدرك السادات أن عليه، قبل كل شيء، ترسيخ مكانته.

- في غضون ستة أشهر من انتخابه، اتخذ السادات عددًا من القرارات الفردية التي تتناقض مع آراء من كانوا يسعون إلى معارضته. فقد أصدر مرسومًا بإلغاء مصادرة الممتلكات الخاصة، وأعطى تلميحات بإمكانية إقامة سلام مع إسرائيل، وأعلن عن قيام اتحاد بين كل من مصر وسوريا وليبيا. هذه التحركات الجريئة أحدثت قلقًا لدى كل من رئيس الوزراء السابق علي صبري، ونائب رئيس الوزراء السابق شعراوي جمعة، اللذين صُعقا من تحركات الرئيس الجديد خارج نطاق، وتوجَّسًا من تراجع قوتها داخل مجلس الأمة، فشرعا في التخطيط لانقلاب عسكري. وفي غضون

أربع وعشرين ساعة، وفيما أصبح يُعرف لاحقًا باسم «ثورة التصحيح»، ألقى السادات معظم المتآمرين في السجن، وأُحيل واحد وتسعون منهم للمحاكمة. صحيحٌ أن هذا الحزم لم يكن واضحًا في المراحل الأولى من مشوار السادات، لكنه بعد ذلك أصبح السمة المميزة لرئاسته.

- رسخت ثورة التصحيح سلطة السادات، لكنه في سبيل الحصول على الشرعية الشعبية، كان عليه الحفاظ على نهج عبد الناصر، مع تحويله في اتجاه جديد. وفي خطاب أمام مجلس الشعب، أكد السادات على التزامه بسياسة عبد الناصر الخارجية، وخصوصًا تجاه إسرائيل، وأضاف أنه سيسعى إلى تحرير الأراضي العربية من الاحتلال الإسرائيلي، وتعزيز الوحدة العربية. ورغم أن السياسة الداخلية لها دائمًا دور كبير في استعادة دور مصر التاريخي، فإن السادات كان مقتنعًا بأن قدرته على إحياء مصر المستقلة سيعتمد في النهاية على سياسته الخارجية.

- في يوليو 1972، اتخذ السادات خطوة جريئة، حيث طرد نحو 20 ألف مستشار عسكري سوفيتي من مصر دون إخطار موسكو. ومن خلال طرد الخبراء السوفييت من مصر يكون السادات قد أزال عقبة رئيسية أمام المشاركة الأمريكية في إرساء عملية سلام. ومع تراجع النفوذ السوفيتي، بدأ أن المسار الدبلوماسي عن طريق أمريكا سيكون هو المسار الطبيعي في المرحلة القادمة. وفي فبراير 1973، وفي إطار تواصل السادات مع الولايات المتحدة في المراحل المبكرة، زار مستشاره للأمن القومي حافظ إسماعيل واشنطن. وأوضح حافظ إسماعيل معنى طرد السادات للسوفييت، ألا وهو أن مصر مستعدة لتطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة.

- كان السادات قد أعلن في مرحلة مبكرة، وتحديدًا في يوليو 1971، في جلسة للاتحاد الاشتراكي العربي، أنه لن يقبل «حالة اللاسلم واللاحرب». وفي عام

1972، قرر تغيير استراتيجيته والتوجه إلى الحرب. وبحلول خريف عام 1973، كان السادات قد أمضى نحو 18 شهرًا في تهيئة المشهد الدولي للصراع الشيك. وفي أكتوبر 1973، شنت مصر وسوريا هجومًا منسقًا على إسرائيل.

- تقدمت مصر نحو عشرة أميال داخل سيناء، واستعادت بعض الأراضي التي كانت إسرائيل قد استولت عليها في عام 1967. وفي الوقت نفسه، اخترقت القوات السورية المواقع الإسرائيلية في مرتفعات الجولان. ومع تقدم الجيشين العربيين، المجهزين بأسلحة سوفيتية أساسًا، تكبدت إسرائيل خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات، شملت المئات من الدبابات والطائرات. وتعهد الرئيس نيكسون بتقديم الدعم لتعويض الخسائر الإسرائيلية، وإرسال معونات طارئة على أساس يومي.

- قرر السادات التوغل في سيناء بفرقتين مدرعتين. وسواء كان هذا القرار نابعًا من الثقة المفرطة في قدراته العسكرية بعد عبور القناة، أو من الرغبة في تخفيف الضغط على حليفه الأسد، فإن المجازفة بالخروج عن المناطق التي يغطيها حائط صواريخ «سام» أسفر عن انتكاسة كارثية. فما بين سلاح الجو الإسرائيلي - بعد أن تحرر من قيود حائط الصواريخ - وبين الهجمات المضادة بالدبابات الإسرائيلية، تم تدمير نحو 250 من الدبابات المصرية. ومن ثم تمكنت الدبابات الإسرائيلية من صد الجيش الثالث المصري، ودفعه إلى الانسحاب باتجاه القناة. وفي غضون يومين من تلك المعركة، وفي خضم قتال عنيف، عبرت القوات الإسرائيلية القناة إلى الناحية الأخرى، وبدأت في تدمير مواقع صواريخ سام السوفيتية الصنع على الضفة الغربية للقناة. وفي الوقت نفسه، توغلت القوات المدرعة الإسرائيلية، التي زاد عددها على عشرة آلاف جندي، خلف الجيش الثالث، وهددت بتطويقه، بل وهددت بالوصول إلى مشارف القاهرة.

- في 18 أكتوبر، ومع انسحاب فرقتين مصريتين من سيناء، دعا السادات فجأة إلى وقف لإطلاق النار. فمع تحول مجريات الحرب ضده، كان بحاجة إلى استراحة، بينما لا يزال يحتفظ بموطئ قدم في سيناء. وفي الوقت الذي التمس فيه وقف إطلاق النار، زعم أنه حقق «انتصاراً نفسياً». فقد قال إن العدو فقد توازنه ولا يزال فاقداً لتوازنه إلى هذه اللحظة، وقال إن الأمة الجريحة استعادت شرفها، وتغيرت الخريطة السياسية للشرق الأوسط. بيد أن الأزمة كانت بالفعل قد أصابت الاقتصاد العالمي في عمومه، عندما أعلنت منظمة الأوبك، في 17 أكتوبر، حظر بيع النفط، بهدف إرغام الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين على دفع إسرائيل باتجاه تسوية. وزاد سعر برميل النفط حينذاك بنسبة 400 في المائة مقارنةً بمستواه قبل الأزمة.

- في اليوم التالي، بدأ السفير السوفيتي أناتولي دوبرينين وهنري كيسنجر يصوغان نص اتفاق وقف إطلاق النار الذي قُدم إلى مجلس الأمن في 22 أكتوبر، وتم اعتماده بالإجماع. وحسبما هو معروف، فإنه منذ هدنة عامي 1948 و1949 لم يحدث أن تفاوض مسؤولون مصريون وإسرائيليون وجهًا لوجه. ولكن على نحو لم تتوقعه الأطراف كافة، أبلغ السادات الإسرائيليين بأنه سيرسل ضباطًا عسكريين إلى الكيلومتر 80 من طريق القاهرة-السويس لمناقشة تفاصيل قرار مقترح من الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار. ولم يكن ذلك يعني اعترافاً رسمياً أو دبلوماسياً بإسرائيل، وإنما كان رمزاً لعزم السادات على توجيه مصر في مسار جديد.

- في نوفمبر 1973، التقى وزير الخارجية هنري كيسنجر السادات شخصياً لأول مرة في قصر الطاهرة بالقاهرة. واقترح السادات خطة من ست نقاط سماها «خطة كيسنجر»، تضمنت فك الاشتباك بين القوات الإسرائيلية والمصرية، واستعادة العلاقات الدبلوماسية الأمريكية-المصرية. كان هدف السادات هو إنهاء الصراع مع إسرائيل، وهو الصراع الذي استنزف طاقة

مصر وثقتها منذ حرب يونيو 1967، إذ إن وجود إسرائيل في حد ذاته لم يكن هو الذي يشكل تهديدًا لوجود مصر، وإيها الحرب معها.

• كان من المفترض أن تأتي الخطوة المنطقية تجاه السلام مع إسرائيل على شكل اتفاق بشأن الضفة الغربية لنهر الأردن، التي احتلتها إسرائيل في أعقاب حرب يونيو 1967. لكن هذا الخيار استُبعد بسبب المشهد السياسي الداخلي العربي. وفي أكتوبر 1974، اتخذت جامعة الدول العربية قرارًا باعتبار «منظمة التحرير الفلسطينية» الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين. وكان هذا يعني أن أي محاولة إسرائيلية للانفصال عن الضفة الغربية، عن طريق التفاوض مع الملك حسين ملك الأردن، سوف تقود على الفور إلى صراع أهلي في العالم العربي. ولم تكن إسرائيل مستعدة آنذاك للتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية العازمة على تدمير إسرائيل.

• في الوقت نفسه، وصلت قيادة جديدة إلى البيت الأبيض، حيث أدى جيرالد فورد اليمين الدستورية كرئيس في أعقاب استقالة نيكسون. وبالتوازي مع ذلك، أدى إسحاق رابين اليمين الدستورية بوصفه رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد. وتصدر الإشارة إلى أن رابين، وهو أحد القادة السابقين في الجيش الإسرائيلي أثناء حرب عام 1967، كان لديه قناعة بأن وضع إسرائيل الهش على مدى تاريخها لا يمكن تجاوزه إلا من خلال ربط الشعب الإسرائيلي بجيرانه العرب. كان رابين حاصلاً على تعليم جيد، ولديه درجة عالية من الذكاء، وكان ينظر إلى عملية التفاوض من خلال منظور تحليلي. وبالنسبة له، كان يفضل النهج التدريجي، وقد عبّر عنه بمقولة: «قطعة من الأرض مقابل قطعة من السلام».

• في عام 1975، بدأ السادات ورايين يستكشفان مفاوضات سلام تجريبية. كان الرجلان ملتزمين بفكرة السلام، واتفقا على نهج تدريجي ومتعدد المراحل.

كان المفهوم المطروح على الطاولة يقوم على انسحاب إسرائيلي آخر مقابل إعلان مصري بعدم الاعتداء. وفي عام 1975 بدا في الأفق شيء من الاتفاق، أقامت مصر وإسرائيل بموجبه توازنًا بين الضرورات العسكرية والأوضاع السياسية.

- في أبريل 1977، قدم السادات إلى الرئيس الأمريكي جيمي كارتر - الذي جرى تنصيبه حديثًا - خطة سلام، تدعو إلى إقامة دولة فلسطينية، مع الانسحاب الإسرائيلي إلى حدود ما قبل عام 1967. وقال السادات إنه مستعد أيضًا للاعتراف رسميًا بإسرائيل، وإنه لن يعترض على المساعدة الأمريكية أو الضمانات المقدمة للدولة الفلسطينية المرتقبة. بيد أن رئيس الوزراء الإسرائيلي - المنتخب حديثًا أيضًا - استبعد التوصل إلى «سلام مُلزم» مع مصر إذا كان يتضمن الانسحاب إلى حدود ما قبل عام 1967.

أظهرت السنوات الأربع التالية أن ما قام به السادات خلق أمام الطرفين كثيرًا من العقبات. جاءت أولى الاتهامات من العالم العربي، حيث شعر القادة العرب أن السادات خانهم شخصيًا من خلال عدم تشاوره معهم. وفي مؤتمر عُقد في طرابلس الغرب في ديسمبر 1977، وصفت سوريا والجزائر واليمن الجنوبي وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية تصرفات السادات بأنها «خيانة عظمى»، واتفقت على فرض إجراءات مقاطعة عقابية ضد أي مؤسسات مصرية تتعامل تجاريًا مع إسرائيل. وعلى إثر ذلك بوقت قصير، قطعت مصر علاقاتها مع خمس دول عربية، إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية.

- في العام التالي، تعثرت خطوات بيغن والسادات نحو السلام، ما سبب إزعاجًا للسادات الذي طلب من كارتر الانضمام إلى طاولة المفاوضات. استجاب الرئيس الأمريكي إلى هذا الاقتراح، وأرسل دعوة إلى كُلٍّ من السادات وبيغن للاجتماع في كامب ديفيد في سبتمبر 1978. في هذا الاجتماع اتفق

الطرفان على نبد استخدام القوة، وعلى تطبيع العلاقات، وتوقيع معاهدة سلام ثنائية، والسماح باستمرار وجود قوات الأمم المتحدة حول قناة السويس. وفي هذا الاجتماع أيضًا وافقت إسرائيل على الانسحاب من سيناء بكاملها.

- قوبلت اتفاقية كامب ديفيد بالرفض من أبرز القادة العرب؛ لفشلها في تسوية الوضع النهائي للضفة الغربية وقطاع غزة، وعدم إشراك منظمة التحرير الفلسطينية في المفاوضات. وأسهمت المعارضة العربية الخارجية في تغذية العداء للسادات داخل مصر.
- يُذكر أنه في عام 1974، بدأ السادات الترويج لسياسات الانفتاح الاقتصادي من خلال تشريع قوانين حررت الاقتصاد المصري.
- في يناير 1977، عندما حاول السادات رفع الدعم عن المواد الغذائية الأساسية مثل الخبز، اندلعت أعمال شغب في جميع أنحاء البلاد، وبلغ عدد المتظاهرين 30 ألف شخص في القاهرة وحدها. كان من أقوى خصومه في تلك المرحلة جماعة التكفير والهجرة، التي كرست جهودها لمحاربة النفوذ الغربي والصهيونية، وعارضت جهود السلام التي بذلها السادات. وسرعان ما تحولت المعارضة إلى العنف، حيث قامت الجماعة الأصولية باختطاف أحد وزراء السادات السابقين وإعدامه في يوليو 1977.
- في 6 أكتوبر 1981، احتفلت مصر بالذكرى الثامنة لحرب أكتوبر. كان السادات جالسًا على المنصة يشاهد العرض العسكري، عندما توقفت فجأة إحدى الشاحنات، وأطلق أحد المتشددين المسلحين النار على السادات، فقتله مع عشرة أشخاص آخرين. وهكذا تحول طريق السادات من السعي لتحقيق حلم المصالحة التاريخية إلى طريق لنيل الشهادة.

- كان السادات يعتقد أن حرية مصر ستتحقق أولاً من خلال الاستقلال، ثم من خلال المصالحة التاريخية. وكان هدفه إحياء حوار قديم بين اليهود والعرب، بناءً على فهمه أن بينهما تاريخاً مشتركاً. وهذا الإيمان في إمكانية التوافق والتعايش بين المجتمعات ذات العقائد الدينية المختلفة هو الأمر الذي لم يحتمله خصومه.
- كانت رؤية السادات لمصر أنها «دولة إسلامية مسالمة»، تمتلك من القوة ما يمكنها من إبرام شراكة مع عدوتها السابقة، بدلاً من الخضوع لهيمنتها أو محاولة الهيمنة عليها. وقد أدرك أن السلام العادل لا يمكن أن تفرضه قوى خارجية، وأنه لن يتحقق إلا من خلال التقدم والاعتراف بالمصالح المشتركة. ولكن رؤيته كانت بعيدة كل البعد عن رؤية أقرانه ومعاصريه، مما جعل تطبيقها صعباً عليه. ولم يبقَ منها بعد مصرعه إلا العناصر العملية التي كان يعتبرها سريعة الزوال.

الفصل الخامس: لي كوان يو، أول رئيس وزراء لسنغافورة (1959-1990).

- في عام 1968، ذهب لي كوان يو، رئيس وزراء سنغافورة، إلى جامعة هارفارد لقضاء إجازة مدتها شهر. كان لي معروفاً بقيادته لحزب شبه اشتراكي في دولة حديثة التأسيس في حقبة ما بعد الاستعمار. وفي اجتماع مع أعضاء هيئة التدريس بجامعة هارفارد، قال لي إن سنغافورة تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية لضمان أمنها، في مواجهة هجمات العصابات الشيوعية التي تدعمها الصين في جنوب شرق آسيا.
- لم يَحْمَل لي الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية التحديات التي تواجهها سنغافورة، بل سعى للحصول على وعود منها بمساعدة سنغافورة في تحقيق النمو الاقتصادي وضمان الأمن. وشدد على أن المورد الرئيسي لسنغافورة هو شعبها، ولكنه طلب دعمًا أمريكيًا لمواجهة التحديات التي يمثلها انسحاب القوات البريطانية من سنغافورة. وقد أظهر منهجه أنه رجل دولة، يمتلك القدرة على تحليل الأمور بشكل واضح، ويتحلى بالشجاعة اللازمة للسير عكس التيار السائد.
- بيّن كيسنجر أن إحدى الصفات الأساسية لرجل الدولة هي قدرته على مقاومة الانجراف مع التيار السائد. ويذكر أن مشاركة لي في تلك الندوة الدراسية بجامعة هارفارد كانت مفيدة، ليس فقط من أجل وصوله إلى تحليل واضح لمكانة كل من الولايات المتحدة الأمريكية وسنغافورة في العالم، بل أيضاً لأنها أمدته بمزيد من الشجاعة اللازمة للوقوف ضد التيار.

- كانت إنجازات لي كوان يو مختلفة عن إنجازات القادة الآخرين المذكورين في الكتاب. فالقادة الآخرون كانوا يمثلون دولاً ذات تاريخ ثري، بينما كان لي قائدًا لسنغافورة الدولة المستقلة حديثًا. ولكن لي أصبح رجل دولة عالميًا، ومستشارًا لقادة بعض القوى العظمى، مثل ريتشارد نيكسون ومارغريت تاتشر.
- إن نجاح القادة - مثل لي - يُقاس من خلال توظيفهم لتاريخ مجتمعهم وقِيمِهِ، للوصول به إلى مستقبل ناجح. فقد استطاع لي تحويل سنغافورة من كيان سياسي لا وجود له إلى دولة ديناميكية، تتميز بتنوع عرقي، وتمتلك اقتصادًا عالميًا، على الرغم من صغر حجمها وافتقارها إلى الموارد الطبيعية.
- بسبب افتقارها إلى العمق التاريخي، كان بقاء سنغافورة يعتمد على أن تحقق أداءً عاليًا. وقد شدّد لي على الحاجة إلى التمييز لضمان بقاء سنغافورة ونجاحها. وكان أثناء قيادته يُوجّه السياستين - الداخلية والخارجية - للحفاظ على النمو الاقتصادي وتعزيز التماسك المحلي والعلاقات الخارجية. كان لديه وعي تاريخي بالتحديات التي تواجه الدول الصغيرة المكونة من مدينة واحدة، ومقتنعًا بضرورة التحسين المستمر.
- شملت رؤية لي السعي لتحقيق التميز على مستوى المجتمع، وتشجيع النجاح المشترك، وعدم القبول بالأداء المتوسط. كان يؤمن بإمكانات شعبه، ويعمل على تعزيز الثقة به محليًا ودوليًا. وقد درست الصين نهج لي، وطبقته من خلال الإصلاحات التي نفذتها بعد رؤية نجاح سنغافورة. وغنيًا عن الذكر أن زيارة الرئيس الصيني دينج شياو بينج لسنغافورة عام 1978، وما رآه فيها، كان له تأثير مباشر على الإصلاحات التي حدثت في الصين في حقبة ما بعد ماو تسي تونج.

- وُلِدَ لي كوان يو في عام 1923، بعد أكثر من قرن على تأسيس سنغافورة كمركز تجاري على يد السير ستامفورد رافلز، نائب حاكم المستعمرة البريطانية في سومطرة. وقد نمت سنغافورة التي أسسها رافلز في عام 1819 نموًا سريعًا بسبب التجارة والموارد الطبيعية، واستقرت فيها مجموعات عرقية متنوعة، ثم أصبح العرق الصيني أغلبية. حين وُلِدَ لي، كانت سنغافورة تمثل أهمية حيوية للاستراتيجية العسكرية البريطانية في آسيا. وقد ازدهرت عائلة لي في عشرينيات القرن الماضي، وتأثرت تربيته بتأثيرات صينية وإنجليزية.

- على الرغم من أن لي درس باللغة الإنجليزية، فقد كانت تربيته صينية تقليدية، وتأثر بالقيم الكونفوشوسية. عانى والد لي من الكساد الكبير في عام 1929، ومع ذلك فقد أعطيا الأولوية لتعليم أطفالهما. كان لي متفوقًا في دراسته، ودرس القانون في سنغافورة، ثم حصل على منحة من الملكة للدراسة في إنجلترا. بعد ذلك، خلال الحرب العالمية الثانية، وعلى يد الاحتلال الياباني، تحطمت لدى لي وغيره من السنغافوريين صورة بريطانيا التي لا تُقهر. وكان لدروس البقاء العملية التي تعلمها لي خلال فترة الاحتلال أثرٌ كبيرٌ على نهجه في الحكم بعد ذلك.

- بعد الحرب العالمية الثانية، تزوج لي من كوا جيوك تشو، التي كان لها تأثير فكري كبير في حياته. كانت آراء لي خلال فترة تعليمه العالي في كامبريدج تميل نحو الاشتراكية ومناهضة للاستعمار، ومستمدة من حركات الاستقلال العالمية. بدأ لي مشاركته في الحياة العامة أثناء وجوده في بريطانيا، حيث أيد الحكم الذاتي للمالايا، وطالب بالاستقلال التعاوني والتدريجي بشكل يحقق منفعة متبادلة مع القوة المستعمرة.

- بعد الحرب العالمية الثانية، وأثناء وجود لي في إنجلترا، واجهت سنغافورة اضطرابات، وصلت إلى حد تقنين الطعام، في ظل انتشار مرض السل. وقد تقلد لي منصب رئيس الوزراء في فترة شهدت فيها بلاده تغييرات دستورية.

فقام بإنشاء مجلس الإسكان والتعمير لبناء مساكن ميسورة التكلفة والقضاء على نقص المساكن، وقضى على الفساد من خلال سن قوانين صارمة تم تطبيقها بحزم.

- كانت سياسات لي تربط الرخاء الفردي باستقرار الدولة، الذي تعزز نتيجة لمكافحة الفساد. كما أكد على النظام العام والوئام المجتمعي، معتبراً أن الدولة المنظمة ضمان للحرية. واستثمر في التعليم والصحة والخدمات العامة، مما أحدث تحولاً في جودة الحياة في سنغافورة. أنشأ لي أيضاً مؤسسات شبه سياسية لتعزيز المشاركة العامة، ودمج حزب العمل الشعبي في مؤسسات الدولة. وحافظ حزب العمل الشعبي على هيمنته من خلال المناورات السياسية والنظام الانتخابي والإجراءات القانونية.

- بعد انفصال سنغافورة عن ماليزيا في عام 1965، أصبحت سنغافورة وحيدة، وشارت مخاوف بشأن قدرتها على البقاء. ولكن شعور لي بوضع سنغافورة الصعب زاد من تصميمه على أن تحقق بلاده أداءً متميزاً لضمان البقاء.

- في سبعينيات القرن الماضي، توقع أرنولد توينبي أن حجم سنغافورة الصغير سيعوق قدرتها على البقاء كدولة ذات سيادة. ولكن لي أثبت عكس ذلك، وسعى إلى إنشاء أمة موحدة من أعراقها المتنوعة، حيث قال في عام 1963: «إن عظمة الأمة لا تكمن في حجمها فقط، بل في إرادة شعبها وتماسكه وانضباطه، وقدرته على التحمل، ونوعية قادته، وهذا ما يضمن لها مكانة مشرفة في التاريخ».

- يرى لي أن الشعب المترابط بشدة، الذي لديه شعور بالانتماء المشترك والقدرة على التكيف، سيكون قادراً على مواجهة أصعب التحديات. وقد أدرك أن سنغافورة تفتقر إلى مكونات الأمة - وهي اللغة والثقافة والمصير المشترك - فركز على وحدة الأعراق والأديان لبناء أمة سنغافورية.

- لم يلجأ لي إلى أسلوب تحريض الأعراق المتنوعة بعضها ضد بعض، بل قام بتوجيه التنوع وإدارته. وشملت سياسته اللغوية تعليمًا ثنائي اللغة، مما جعل اللغة الإنجليزية قاسمًا مشتركًا، وأسهم في تحقيق فوائد اقتصادية وإبراز انفتاح البلاد.
- كان بناء الجيش يمثل أولوية لردع أي عدوان؛ نظرًا لعدم وجود قوات موالية بعد الانفصال عن ماليزيا. وقد حصل لي على مساعدة عسكرية من إسرائيل، ولكنه كان يشير إلى المستشارين الإسرائيليين بكلمة «المكسيكيين»، لكي يتجنب أي رد فعل عنيف. ومن هنا أصبح النموذج الأمني في سنغافورة يعكس نظيره في إسرائيل، حيث تمتلك البلاد جيشًا صغيرًا، ولكنه محترف، ولديها قدرات احتياطية. يعتقد لي أن الخدمة الوطنية عززت الوحدة والمساواة الاجتماعية بين المجموعات العرقية. وأصبحت القوات المسلحة السنغافورية ذات قدرات عالية خلال جيل واحد.
- الانفصال عن ماليزيا أدى إلى تحول نهج لي الاشتراكي نحو النمو الاقتصادي العملي والمشاركة العادلة، حيث أدرك أنه لا يوجد دليل إرشادي جاهز لبناء أمة من مهاجرين متنوعين. وشكلت تجاربه خلال الحرب العالمية الثانية، والنضالات السياسية، وانفصال ماليزيا، كل ذلك شكّل قناعاته المتعلقة بالحكم. كما أثرت رحلاته الكثيرة وأحاديثه مع القادة الأجانب على آرائه حول أداء الأمة.
- رفض لي الشيوعية؛ لأنها حسب رؤيته تعني تفكيك المؤسسات القائمة التي كانت تعمل جيدًا. وجاء تفضيله لاقتصاد السوق بناء على ملاحظته بأنه يحقق معدلات نمو أعلى. وسعت سياسته المتعلقة بالهجرة إلى إقناع الأجانب المهووبين بالاستقرار في سنغافورة. لم يكن الغرض من ذلك تنفيذ أفكار نظرية حول فوائد التعددية الثقافية، بل كان تلبية لمتطلبات نمو سنغافورة وتركيبها السكانية. كما أنه أدخل النساء في القوى العاملة.

- كان لي يعتقد أن عظمة الأمة تكمن في تلاحمها وانضباطها وقدرتها على التحمل ونوعية قيادتها. وأصبحت مقولة «دع التاريخ يحكم» هي المبدأ الذي يُوجّه لي في اتخاذ القرارات، حيث تبنّى سياسات هجرة تهدف لتحقيق النمو في سنغافورة، ولا تكتفي بمجرد التعددية الثقافية النظرية. كان لتفكيره جانب نفعي قوي يهدف إلى تحقيق أقصى قدر من الرفاهية والتقدم للمواطنين. وأجرى مفاضلة بين أنظمة الحكم لتحديد أكثرها فاعلية لرفاهية الأمة.
- في عام 1968، قررت بريطانيا إنهاء وجودها العسكري في سنغافورة، مما شكل تهديدًا لاقتصادها. حينذاك طلب لي المشورة من الخبير الاقتصادي ألبرت وينسيموس، الذي نصحه بالتصنيع، وخفض الأجور، والاعتماد على التكنولوجيا. قام لي ووزير ماليته - جوه كينج سوي - بإعادة تصميم الاقتصاد، والترحيب بالشركات متعددة الجنسيات، والتركيز على مهارة القوى العاملة. كما تم تنفيذ مشاريع لتخضير المدن، وتوفير خدمات عالية الجودة، وإطلاق مبادرات لجذب الاستثمارات الأجنبية.
- بحلول عام 1971، كان اقتصاد سنغافورة ينمو بمعدل يفوق 8% سنويًا، وكان أكثر من نصف القوة العاملة يعمل في شركات متعددة الجنسيات. وبحلول عام 1973، أصبحت سنغافورة مركزًا رئيسيًا لتكرير النفط، وجذبت استثمارات أجنبية كبيرة. على الرغم من المخاوف الأولية، استطاعت سنغافورة أن تمتص الصدمة الاقتصادية الناتجة عن مغادرة القوات البريطانية، وذلك بفضل قدرة لي على التكيف. وقد أعطى لي الأولوية للتعليم، وعمل على زيادة الإنتاجية ورفع الأهداف الصناعية والاجتماعية. وخلال ثلاثة عقود، قاد لي مسيرة التنمية في سنغافورة، انطلاقًا من مرحلة الكفاف، ووصولًا إلى مرحلة الابتكار واستخدام التكنولوجيا العالية. وبحلول عام 1990، كانت سنغافورة تحت قيادة لي قد حققت نجاحًا اقتصاديًا تُحسد عليه، متجاوزة كل التوقعات.

- خلال زيارته لجامعة هارفارد في عام 1968، دافع لي كوان يو عن تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في الهند الصينية، وظل يدافع عنه لسنوات، مؤكداً على دور واشنطن في مستقبل آسيا. كانت تحليلات لي تحظى بالاحترام بسبب دقتها، وبسبب قدرته على فهم جوهر الأمور المعقدة، فقد كان يسعى إلى ترسيخ النظام العالمي والمحافظة على التوازن بين القوى العظمى. وكان يقدر كرم الولايات المتحدة الأمريكية وانفتاحها، ويعترف بدورها في نشر الاستقرار في فترة ما بعد الحرب.
- أدرك لي أن كلاً من الولايات المتحدة الأمريكية والصين تلعبان دوراً محورياً في بقاء سنغافورة ومكانتها في العالم، ولكنه كان يرى أن الدور الأمريكي أكثر ضرورةً للمحافظة على التوازن في جنوب شرق آسيا. فنصح الولايات المتحدة الأمريكية بالموازنة بين مئثلها العليا وبين الوقائع الاستراتيجية، محذراً إياها من الانعزالية الجديدة.
- بعد تنحيه عن رئاسة الوزراء، ظل لي يُدّكر الولايات المتحدة الأمريكية بمسؤولياتها العالمية وأهمية الحفاظ على التوازن. كان يحترم الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن موافقها المتقلبة كانت تُشعره بعدم الارتياح. كما كان يحترم الصين ويخشها بسبب سعيها المستمر لتحقيق أهدافها. كانت رؤية لي الجيوسياسية تتمحور حول ضمان ازدهار سنغافورة من خلال إقامة علاقات متوازنة مع القوى العظمى.
- توقع لي كوان يو قدرة الصين على الهيمنة في آسيا، وأدرك تصميمها على ذلك. كما توقع صعود الصين في نهاية المطاف على الرغم من تخلفها الاقتصادي حينذاك، ولكنه توقع أيضاً أن تبقى ضعيفة في المدى المتوسط، بسبب نظامها الشيوعي وافتقارها إلى المعرفة العملية. وقد تغيرت نظرتة بشأن صعود الصين، فتحولت من الاحترام الممزوج بالخوف إلى إدراك أنها

باتت تمثل التحدي الرئيسي في تلك الحقبة. كان لي يرى أن ميول الصين الإمبريالية عبر تاريخها يمكن أن تدفعها نحو الهيمنة، فحرص على أن تكون سنغافورة دولة مستقلة في علاقاتها مع كل من الصين والقوتين العظيمين الآخرين (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت).

- رحب لي بالزعيم الصيني دينج شياو بينج في زيارته لسنغافورة عام 1978، في محاولة لتخفيف ميل السياسة الصينية نحو الهيمنة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الزيارة قد عززت من قناعة دينج بضرورة إجراء إصلاحات اقتصادية في الصين، وأدت إلى تبني سياسات الانفتاح الاقتصادي. كان لي يدرك قدرة دينج على تغيير سياسات ماو، ورأى في انهيار الاتحاد السوفيتي دليلاً على عدم فهم غورباتشوف للأوضاع الدولية.

- كان تحذير لي كوان يو بشأن صعود الصين مقلِّماً للولايات المتحدة الأمريكية، حيث توقع أن تسعى الصين إلى مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية في الهيمنة على العالم، مما سيؤدي إلى اضطراب التوازن العالمي. وشدد على ضرورة وجود علاقة متوازنة وودية بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين؛ من أجل تقدم سنغافورة. كما حث الجيل الصاعد في الصين على التواضع، وحث الولايات المتحدة الأمريكية على إشراك الصين في المجتمع الدولي.

- رأى لي في احتمال نشوب حرب بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين أمراً مرعباً، وشدد على ضرورة التزام البلدين بضبط النفس. وتوقع أن يؤدي صعود الصين إلى ظهور تحديات بالنسبة لها وللولايات المتحدة الأمريكية على السواء، وتساءل عما إذا كان بإمكانهما تحويل السلوك العدائي إلى تعايش سلمي.

- كان لي قائداً يحظى بالاحترام على جانبي المحيط الهادي، ويمثل ضمير العالم، وكان يدعو إلى الحكمة وضبط النفس لمنع وقوع كارثة عالمية. ويرى

كيسنجر أن مصير العالم الحديث يعتمد على قدرة الولايات المتحدة الأمريكية والصين - معاً - على التعايش وتجنب الانزلاق نحو الصراع.

- استقال لي كوان يو من منصب رئيس الوزراء في عام 1990، ونأى بنفسه تدريجيًا عن شؤون الحكم. ولكن ينبغي الاعتراف بأن الفضل يعود إليه في نمو نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي في سنغافورة، من 517 دولارًا في عام 1965، إلى 60 ألف دولار في عام 2020، مع نمو الناتج المحلي الإجمالي بمعدل 8% سنويًا. وكان النهج الذي اتبعه لتحقيق النمو الاقتصادي يقوم على التجارة الحرة والرأسمالية وتنفيذ عقود الأعمال. كما رأى في التنوع العرقي ميزة، وعمل على منع التدخل الخارجي في النزاعات المحلية. وكان يعتقد أن الأيديولوجيات السياسية غير مهمة لتطور المجتمع، مشددًا بدلًا من ذلك على أهمية الثقافة والتعايش.

- سار خلفاء لي على نهجه، وظل نظام الحكم في سنغافورة استبداديًا، مع استخدام الانتخابات لتقييم الأداء. فقد رأى لي أن تركيز سنغافورة على الديمقراطية في البداية ربما كان سيؤدي إلى ترسيخ الانقسامات العرقية وتعزيز السياسات القائمة على الهوية. ولذلك ركز على الإدارة العملية والكفاءة الفنية لخدمة المواطنين.

- يمثل التحدي الذي يواجه سنغافورة في المستقبل في الموازنة بين التقدم الاقتصادي وبين التحول الديمقراطي والإنساني المحتمل. كان لي يجرب باستمرار، ويتبنى السياسات التي يثبت نجاحها. وهكذا أسس دولة، ووضع نهجًا لتنميتها، وأوضح دور الحكم الرشيد في تحديد طبيعة سنغافورة وكتابة تاريخها.

- كان لي كوان يو يعزو خصاله الشخصية إلى نشأته الصينية التقليدية، ويعتبر نفسه كونفوشيوسيًا بالفطرة. كان يؤمن بإعطاء الأولوية للمجتمع على المصالح

الفردية، وهذا بالطبع يتعارض مع المبادئ الأمريكية. كان لي يسعى لأن يكون مواطنًا مخلصًا ومسؤولًا وفق المثل الكونفوشيوسية. وكان يركز على التقدم ويكره إضاعة الوقت، ويعمل دائمًا على تحقيق أهداف المجتمع.

- أدت صداقة لي مع كيسنجر إلى مناقشات متنوعة بينهما. واستمرت علاقته القوية مع زوجته تشو حتى وفاتها بعد إصابتها بسكتة دماغية. وبعد وفاتها تضاءلت طاقته، ولكنه ظل يعمل بإخلاص. وما يزال إرثه متمثلًا في التقدم والتفاهم والتعاضد والقيادة الاستشرافية. كان يشدد على نوعية الشعب وأهمية القيادة في تقرير مصير المجتمع. وما يزال إرثه واضحًا وملهمًا في عالم اليوم الحافل بالاضطرابات الإقليمية والصراعات على النفوذ.

- الفصل السادس: مارغريت تاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا بين عامي 1979 و1990

- رسمت قيادة مارغريت تاتشر بين عامي 1979 و1990 معالم حقبة بكاملها في المملكة المتحدة. فقد عملت على التخلص من قيود الماضي والحنين إلى أمجاد الإمبراطورية. وحولت بريطانيا تحت قيادتها إلى أمة واثقة بقدراتها. في البداية، كانت هناك شكوك في إمكانية نجاحها بسبب جنسها، وضعف رأس مالها السياسي، ومكانتها الاجتماعية. فقد كانت أول امرأة تتولى رئاسة الوزراء في المملكة المتحدة، وواحدة من قلة من السياسيين المنتمين إلى الطبقة الوسطى الذين تولوا قيادة حزب المحافظين.

- تميزت قيادة تاتشر بالثبات الشخصي والنهج الفريد. وتميزت إصلاحاتها بالحزم والشجاعة السياسية. وارتبط كيسنجر بعلاقة صداقة قوية معها استمرت ما يقرب من أربعة عقود.

- تُعدُّ معرفة النظام السياسي البريطاني أمرًا بالغ الأهمية لفهم أبعاد صعود مارغريت تاتشر وسقوطها. فعلى عكس نمط القيادة الفردي السائد في

الولايات المتحدة الأمريكية، تطلّح الأحزاب السياسية في المملكة المتحدة بأدوار مؤسسية، حيث يؤدي فوز الحزب في الانتخابات إلى هيمنته على البرلمان، وعندها يصبح بإمكانه تعيين رئيس وزراء جديد.

- ينتمي رئيس الوزراء في المملكة المتحدة إلى الحزب السياسي الفائز، ويتبع له إلى حدّ ما، على عكس النظام الرئاسي الأمريكي. والنظام الوزاري في المملكة المتحدة يرفع من شأن الوزراء، ويوزع السلطة بين رئيس الوزراء والوزراء. وتعتمد سلطة رئيس الوزراء على انضباط حزبه وحفاظه على الأغلبية البرلمانية وثقة أعضاء الحزب فيه.

- مسألة الفصل بين السلطات أقل وضوحًا في المملكة المتحدة، حيث تندمج السلطان التشريعية والتنفيذية. والتوافق بين رئيس الوزراء وبين الحزب، وتمتعهما بالتأييد الشعبي، هما اللذان يضمنان حسن سير العمل. وفي حالة انحراف رئيس الوزراء عن الأصول المتعارف عليها، أو ظهوره بمظهر ضعيف، يحتاج إلى دعم مجلس الوزراء والحزب.

- في نظام المملكة المتحدة، يحتاج قائد الحزب إلى الثبات والإيمان والبراعة وقوة الإقناع ليحافظ على منصبه. في عام 1974، تحدث مارغريت تاتشر إدوارد هيث على قيادة حزب المحافظين. وشكّل فوزها عليه بشكل غير متوقع تحولًا في مسيرة الحزب. كانت معتقدات تاتشر الأساسية تقوم على المجتمع الحر، وتوزيع السلطة، وتأييد الملكية الخاصة. وأسهمت هذه المعتقدات في بلورة سياساتها خلال فترة توليها رئاسة الوزراء من عام 1979 إلى عام 1990.

- عندما تولت تاتشر منصبها في عام 1979، واجهت تحديات المصاعب الاقتصادية وتدهور مكانة البلاد. فبعد الحرب العالمية الثانية، تضاعف نفوذ المملكة المتحدة حول العالم مع صعود القوة الأمريكية. ولذلك اقترح

تشرشل إقامة علاقة خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية تسمح للمملكة المتحدة بالمحافظة على نفوذ عالمي.

- في عام 1956، أظهرت أزمة قناة السويس تراجع قوة المملكة المتحدة، واعتمادها على الولايات المتحدة الأمريكية. وأدت المشكلات الاقتصادية وانتهاء الاستعمار إلى إضعاف مكانتها في العالم. ونشأ صراع هوية في المملكة المتحدة بين التوجه نحو تعزيز الروابط مع الولايات المتحدة الأمريكية، وبين الرغبة في توثيق العلاقات مع أوروبا. ويُذكر أن إدوارد هيث كان يسعى إلى تعزيز التوجه نحو أوروبا، مما تسبب في تَوَثُر العلاقات بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. كان نيكسون يُفَضِّل هيث، في حين كان هيث يسعى إلى تقليص العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ من أجل المحافظة على صورة جيدة لبلاده في أوروبا.

- الأزمة الداخلية الأمريكية (ووترجيت)، والتحركات السوفيتية، أسهما في تعقيد العلاقات بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. وعانت المملكة المتحدة في السبعينيات من صراعات اقتصادية وتضخم ونزاعات عمالية. وشهد شتاء 1978-1979 إضرابات شديدة، أدت إلى أزمة ونقص في السلع، فيما كانت القيادة البريطانية السابقة منشغلة بالتركيز على مسألة إدارة تدهور مكانة بريطانيا، مما أوجد حاجة إلى قائد مختلف.

- تنحدر مارغريت روبرتس، المولودة عام 1925 في جرانثام، من عائلة متدينة، تقدر العمل الجاد والكتاب المقدس. كانت متفوقة في دراستها، وقادت رابطة أكسفورد للمحافظين، ثم حصلت على مقعد في البرلمان في عام 1959. في أول خطاب لها في مجلس العموم عام 1960، أيدت اطلاع الجمهور على مجريات اجتماعات الحكومة المحلية.

- تميزت تاتشر بكفاءتها والتزامها، مما مكنها من صعود السلم السياسي. كانت تحمل قِيَمًا محافظة، وتتبع أسلوبًا مباشرًا، وتعطي الأولوية للمبادئ على الوعود. كان لديها الشجاعة والقناعة، على الرغم من التوقعات بأن قيادتها للحزب ستكون وجيزة. وقد أسهمت نشأة تاتشر وقيَمها والتزامها في بلورة نهجها في القيادة.

- سعت تاتشر إلى إحداث تحول في البلاد، ووضعت سياسات واضحة، وآمنت بالعلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وامتدت علاقتها مع الولايات المتحدة الأمريكية إلى ما بعد تركها لمنصبها، حيث سعت إلى إجراء مناقشات بشأن رؤيتها وخياراتها.

- تبلورت وجهات نظر تاتشر بشأن السياسة الخارجية من خلال الدراسة الدؤوبة، وعقد ندوات مع المفكرين. كانت شديدة الإيمان بمسألة عدم انتهاك سيادة الدول، وبحق المواطنين في اختيار حكومتهم. كانت السيادة البريطانية مرتبطة بالتاريخ والجغرافيا والاستقلال. وكانت تاتشر تحترم القانون الدولي، ولكنها لم تكن تريد إشراك الأمم المتحدة دون ضرورة.

- كانت تاتشر تؤمن بضرورة امتلاك نظام دفاعي وطني قوي وراذع؛ من أجل المحافظة على السلام والسيادة. كان لديها قناعة قوية مناهضة للشيوعية، وروجت بقوة للديمقراطية الليبرالية باعتبارها متفوقة أخلاقيًا. وبغض النظر عن مبادئها، فإن وجود اتحاد سوفيتي مسلح نوويًا كان يعني أن دفاع المملكة المتحدة لا بُدَّ أن يعتمد على الشراكة مع الولايات المتحدة الأمريكية.

- شملت العلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية مشاورات وثيقة وصداقة تاريخية. كانت تاتشر معجبة بالولايات المتحدة الأمريكية، وتؤمن بالحاجة إلى تنفيذ مشروع مشترك لإحياء التحالف الغربي. وكان نهجها في

القيادة يوازن بين المبادئ والقدرة على التكيف، ويعتمد على جاذبيتها وقوة قيادتها. وكانت تقبل النتائج المنقوصة باعتبارها مرحلة في عملية أطول، وتفضل العمل على التقاعس.

- ركزت تاتشر بصورة أساسية على الإصلاح الداخلي، إلى جانب ما كانت تتمتع به أيضًا من حضور دولي بارز. لم يكن فوزها في عام 1979 مضمونًا، ولكن دراستها للاقتصاد مكنتها من اقتناص الفرص. كان برنامج تاتشر الاقتصادي يهدف إلى مكافحة التضخم، فرفعت أسعار الفائدة إلى 17%.

- على الرغم من الانتقادات، فإن إصلاحات تاتشر الاقتصادية استطاعت تغيير بريطانيا، حيث تم رفع الضوابط المفروضة على أسعار الصرف، وفتحت البورصة، وقمت خصخصة الشركات المملوكة للدولة. كما نفذت «برنامج حق الشراء»، الذي حوّل المستأجرين إلى أصحاب منازل، وأسفر عن تكوين قواعد انتخابية جديدة.

- ونجحت إصلاحاتها الاقتصادية، حيث تراجعت معدلات التضخم والبطالة، وارتفع الدخل، وانخفض عدد أيام العمل الضائعة بسبب النزاعات العمالية. وقد استمر تأثير تاتشر الاقتصادي، حيث أثر نهجها على حكومة حزب العمال الجديدة برئاسة توني بلير، ودفعها لتبني سياسات ذات ميول يمينية. وعلى الرغم من اضطرار تاتشر إلى ترك منصبها، فإن إرثها قد دفع حَلْفَيْهَا - بلير وبراون - لدعوتهما إلى 10 داونينج ستريت لتناول الشاي معهما، مما يثبت استمرار تأثيرها على الوسط السياسي.

- كان من واجب تاتشر الدفاع عن المصالح البريطانية حول العالم والحفاظ على حلف الناتو. وشكّلت أزمة جزر فوكلاند اختبارًا لقوة عزمها، عندما غزت الأرجنتين الجزر عام 1982. ومن المعروف أن الأمم المتحدة قد طعنت في دفاع تاتشر عن السيادة البريطانية، حيث نظرت بعض الدول إلى غزو

الأرجنتين للجزر على أنه إنهاء للاستعمار. بينما أيد الرئيس الفرنسي ميتران موقف تاتشر.

- وازنت تاتشر بين المبادئ وبين الدبلوماسية في أزمة فوكلاند، وأدى تصرفها الحازم إلى إنشاء مجموعة عمل بحرية على الرغم من الشكوك. في البداية كانت الولايات المتحدة الأمريكية مترددة، ولكنها ساعدت بريطانيا سرًا وزودتها بإمدادات عسكرية. وقد أدى انتصار بريطانيا في حرب جزر فوكلاند إلى رفع مكانتها الدولية. وكانت تاتشر تفصل في نهجها بين شؤون المستعمرات وبين القضايا الاستراتيجية.

- بعد حرب فوكلاند، واجهت تاتشر تحدي مستقبل هونغ كونغ. كانت هونغ كونغ مستعمرة بريطانية منذ عام 1842، ولكن المناطق الجديدة المحيطة بها كانت مُستأجرة حتى عام 1997. رفضت الصين المزاعم التاريخية لبريطانيا، وأصررت على عودة هونغ كونغ إلى السيادة الصينية بحلول عام 1997. طلبت تاتشر تعهدًا من الصين باستمرار الإدارة البريطانية لهونغ كونغ، ولكن الصين رفضت السيادة والإدارة البريطانية، وتمسكت بموقف غير قابل للتفاوض في هذا الشأن.

- كانت بكين تريد إبقاء النظام الرأسمالي في هونغ كونغ تحت سيطرتها. ولم يكن العمل العسكري ممكنًا بالنسبة لتاتشر. وهكذا قادتها المحادثات إلى التفاوض حول المناطق الجديدة. وقد نص الإعلان الصيني البريطاني الصادر عام 1984 على نقل السيادة في عام 1997، مع استمرار الحكم الذاتي لمدة خمسين عامًا. وهكذا أسهمت تاتشر من خلال المفاوضات في دعم الحكم الذاتي لهونغ كونغ.

- كان للصراع في أيرلندا الشمالية تأثير شديد على تاتشر، وأضعف ثقفتها بنفسها. ولكنها قاومت تكتيكات التهيب التي اتبعتها الجيش الجمهوري

الأيرلندي، وسعت إلى إقرار السلام من خلال المسار الدبلوماسي. توصلت تاتشر إلى الاتفاقية الإنجليزية الأيرلندية في عام 1985 لإنهاء الاضطرابات، ولكنها كانت متعاطفة مع أغلبية سكان أيرلندا الشمالية الذين يريدون الوحدة. على الرغم من هجمات الجيش الجمهوري الأيرلندي، تابعت تاتشر مفاوضات السلام مع أيرلندا، ولم يفلح تفجير برايتون في عام 1984 في إضعاف عزمها.

- وافقت تاتشر على إجراء محادثات للتوصل إلى الاتفاقية الإنجليزية الأيرلندية، التي منحت بعض السلطة للجانب الأيرلندي، مع الحفاظ على السيادة البريطانية. وعلى الرغم من احتجاجات الوندوين التي أعقبت إبرام الاتفاقية، تحسنت العلاقات بين الطرفين، وإن كان نهجها لم يوقف تمامًا عنف الجيش الجمهوري الأيرلندي، حتى إبرام اتفاقية الجمعة العظيمة عام 1998 التي حققت السلام في نهاية المطاف. ويتسم إرث تاتشر والجهود التي بذلتها لإحلال السلام في أيرلندا بأهمية كبيرة، حيث إن رؤيتها مهدت الطريق لتهدئة نسبية في أيرلندا الشمالية.

- كان تأثير تاتشر على الحرب الباردة نتيجة لمزيج من الواقعية والمثالية. فقد كانت تُشدد على فكرة الدفاع الوطني والردع النووي والتنسيق بين الحلفاء. وتطورت سياستها لتشمل التعايش مع الاتحاد السوفيتي، ولكن مع عدم السعي إلى استرضائه. كما أنها دعمت الدبلوماسية العامة والمفاوضات البناءة، ولكنها انتقدت الهيمنة والأيدولوجية السوفيتية، مؤكدة على كرامة الإنسان. ودافعت عن التضامن البريطاني الأمريكي والعلاقات عبر الأطلسي.

- وازنت تاتشر بين العلاقات مع الحلفاء، ودعمت زيادة الإنفاق الدفاعي. وشددت على أهمية امتلاك بريطانيا قوة نووية رادعة مستقلة، مع

التأكيد على التعاون الأمريكي البريطاني من خلال اتفاقية الدفاع المتبادل. ويُذكر في هذا الصدد أن موقف القوة النووية البريطانية في مقاومة الابتزاز النووي، وتأثير تاتشر على مناقشات الحد من التسلح، ومصداقية الناتو، كل ذلك كان له تأثير حاسم خلال هذه الفترة.

- سعت تاتشر إلى تعزيز العلاقات البريطانية الأمريكية، والدفاع في الوقت نفسه عن المصالح البريطانية. ولكن التدخل العسكري الأمريكي في غرينادا - دون استشارة تاتشر - أدى إلى توتر هذه العلاقات؛ ويعود السبب إلى أهمية غرينادا كمستعمرة بريطانية سابقة في الكومنولث. وقد رفضت تاتشر اعتذار ريغان، وانتقدت الغزو علنًا، ودُكرت الإدارة الأمريكية بأن تأييد بريطانيا لها لم يَعْذُ أمرًا مضمونًا.

- بعد فوزها في الانتخابات للمرة الثانية في عام 1983، بدأ تحرك تاتشر نحو إعادة تقييم العلاقات بين الشرق والغرب، وقد تزامن ذلك مع اهتمامها بالحوار مع القيادة السوفيتية الشابة، وعلى رأسها ميخائيل غورباتشوف، الذي عقدت معه اجتماع غداء في تشيكرز في ديسمبر 1984. كانت تاتشر متفائلة بشكل حذر بشأن إمكانية إجراء حوار مثمر مع غورباتشوف.

- في أعقاب قمة ريكيافيك، شعرت تاتشر بالقلق بسبب وجهة نظر ريغان في قضية التخلص من الأسلحة النووية. وبذلت جهودها لدفع ريغان إلى اتخاذ موقف أكثر صلابة، وقامت بزيارة إلى كامب ديفيد في نوفمبر 1986، الأمر الذي أسفر عن اتفاق بشأن الأسلحة الهجومية الاستراتيجية، وأكد على استمرار الناتو في الاعتماد على الردع النووي.

- هذا الدور الذي قامت به تاتشر في تقديم المشورة إلى ريغان، والتأكيد على العقيدة الدفاعية لحلف الناتو، أدى إلى إظهار حدود العلاقات البريطانية الأمريكية، في حقبة شهدت اختلالًا في التوازنات.

- لعبت المملكة المتحدة بقيادة تاتشر دوراً مهماً في النزاعات العالمية خارج الناتو والحرب الباردة. وقد أثار غزو صدام حسين للكويت عام 1990 مخاوف لديها، وجعلها تقارن هذا الوضع بمحاولات الاسترضاء السابقة. ولهذا كانت مصممة على استعادة سيادة الكويت، وكان لهذا الموقف الأخلاقي الواضح تأثير على الإدارة الأمريكية آنذاك.
- في البداية كان هناك رد حذر من الرئيس جورج بوش الأب، ولكن حضور تاتشر وموقفها في مؤتمر أسبن كان له أثره في اتخاذ رد فعل أقوى. لقد أكدت تاتشر أن الغزو العراقي انتهاك لسيادة دولة الكويت، ودعت إلى اتخاذ موقف دولي قوي ضد هذا العدوان.
- أبدت تاتشر عدم رغبتها في إشراك الأمم المتحدة في تحرير الكويت، وفضلت الحفاظ على حرية المملكة المتحدة في التصرف بالشكل الذي تراه مناسباً. وقد تأثر موقفها بالضغوط السياسية المحلية والأمريكية. وأخيراً استقالت تاتشر من منصبها في نوفمبر 1990.
- مما لا خلاف عليه أن رجال الدولة العظماء يعملون على توسيع حدود الحكمة التقليدية، وتوجيه المناقشات في اتجاهات جديدة. وينبغي الإشارة إلى أن موقف تاتشر من إعادة توحيد ألمانيا - بعد سقوط جدار برلين - تسبب في حدوث خلافات، إذ كانت قلقه من فكرة توحيد ألمانيا الشرقية والغربية؛ بسبب المخاوف التاريخية، والتغيير الذي قد يحدث في ميزان القوى.
- تُعزى شكوك تاتشر في النوايا الألمانية إلى تجربتها خلال الحرب العالمية الثانية. ولهذا اصطدمت خطط التكامل الأوروبية باعتقاد تاتشر بأن دمج ألمانيا في الاتحاد الأوروبي سيزيد من قوتها. ولكن على الرغم من مخاوف تاتشر، استمرت عملية توحيد ألمانيا، وثبت أن بعض آراء تاتشر حول الشخصية الألمانية لم يكن صائباً.

- عارضت تاتشر فكرة التكامل الأوروبي؛ بسبب إيمانها بالسيادة البرلمانية، وعدم ثقتها في نقل السلطات إلى مؤسسات غير منتخبة خارج الدولة. كانت تدعو إلى التحرير الاقتصادي ولكن دون الاندماج السياسي مع أوروبا، وتُشدد على الجوانب العملية والسياسات المؤيدة للسوق والحفاظ على الدول القومية.
- في خطاب ألقته في كلية أوروبا بمدينة بروجس البلجيكية، انتقدت تاتشر الضغوط الساعية إلى تركيز السلطات وتكوين دولة أوروبية عظمى، وقارنتها بالتخطيط المركزي السوفيتي الفاشل. وسلط خطابها الضوء على تعاطفها مع نضال أوروبا الشرقية في سبيل الحرية، وإعجابها بالولايات المتحدة الأمريكية. وتكمن أهمية هذا الخطاب في أن تاتشر توقعته فيه حدوث التوترات بين الهوية البريطانية والتكامل الأوروبي.
- أدت معارضة تاتشر للتكامل الأوروبي إلى حدوث انقسامات داخل حكومتها بشأن السياسة الاقتصادية. ومن المعروف أن النظام البريطاني يعتمد على التعاون بين رئيس الوزراء والحكومة من أجل العمل بفعالية. وعندما تضاءل الدعم الذي تحظى به تاتشر من حكومتها، قدم مايكل هيسيلتين نفسه مرشحاً بديلاً لها.
- اختارت تاتشر احترام الالتزامات الدولية بدلاً من البقاء لمواجهة التحدي، وقررت الاستقالة في نهاية المطاف. وعلى الرغم من خروجها من السلطة ظلت تاتشر تدافع عن إنجازات حكومتها، وحظيت بالثناء من السياسيين، حتى من خارج حزبها.
- كان إحياء تاتشر لبريطانيا يشمل الجانب الاقتصادي والروحي على حد سواء، حيث واجهت الاقتناع السائد آنذاك بفكرة تراجع مكانة بريطانيا، وقاومت هذا الإجماع السائد في السبعينيات، وقدمت رؤية إيجابية

للمستقبل. وأظهرت تاتشر التزامًا قويًا بقناعاتها، وواصلت مسيرتها على الرغم من التحديات والنقد العام.

- شملت استراتيجيات تاتشر كبح جماح التضخم، واتخاذ موقف حازم في الصراع بشأن جزر فوكلاند، والالتزام بسياساتها أثناء إضراب عمال المناجم. وكانت توازن بين الوجود الحكومي القوي وبين الحرية الاقتصادية الفردية، وجذبت شرائح جديدة من الناخبين. وعلى الرغم من أن أعداءها اتهموها بخيانة مبادئ الحزب، فإنها - في الحقيقة - كانت تعمل على استعادة تلك المبادئ والتمسك بها.

- في الشؤون الدولية، تحاورت تاتشر مع غورباتشوف، ودافعت عن العمل البيئي، وعالجت المخاوف بشأن التغير المناخي. وأسهمت سياستها الخارجية في تعزيز الشراكة البريطانية الأمريكية، والمحافظة على النفوذ البريطاني على المسرح العالمي. وبعد تقاعد تاتشر، راحت تصارع لإيجاد دور لها بعيدًا عن السياسة. كانت قيادتها مدفوعة بحب الوطن، وكان تأثيرها واضحًا في الاحترام الذي حظيت به في جنازتها.

الخاتمة: تطور القيادة

- كُتِّبَ من كونراد أديناور، وشارل ديغول، وريتشارد نيكسون، وأنور السادات، ولي كوان يو، ومارغريت تاتشر، قد أثروا على الظروف التاريخية وتأثروا بها. وكان لكل واحد منهم دور في ظهور نظام عالمي جديد.
- واجه هؤلاء القادة تحديات الحرب الباردة، ونهاية الاستعمار، وتأثيرات العولمة. وظهروا في فترة التحول الثقافي من الأرستقراطية الوراثية إلى حكم الجدارة. كانت الأرستقراطية تعني في الأصل حكم الأفضل، ولكنها أصبحت فيما بعد تشير إلى النُبُل المتوارث. وبفضل مبادئ الجدارة والديمقراطية، ظهر قادة من الطبقة الوسطى. إذ لم ينحدر أي من هؤلاء القادة الستة من الطبقة العليا.
- جمع هؤلاء القادة بين الصفات الأرستقراطية وبين طموحات الجدارة، إلى جانب قيم الطبقة الوسطى، التي تشمل الانضباط، وتحسين الذات، والوطنية، والإيمان بالمجتمع. كان لديهم شعور قوي بالهوية الوطنية وبالمسؤولية تجاه مواطنيهم. وقد تربى معظمهم تربية متدينة، غرست فيهم إتقان العمل والتفكير على المدى الطويل.
- كان الصدق والصراحة سمات مشتركة بين هؤلاء القادة الستة. حيث كانوا يتجنبون استخدام الخطاب الذي يتم استخدامه في استطلاعات الرأي والنقاشات المركزة. ولم يكونوا يخشون قول الحقيقة الصعبة وتحدي الآراء السائدة. وكان لديهم إحساس عميق بالواقع ورؤية للمستقبل. فالقيادة

العظام يميزون العناصر المهمة عن العادية. وجرأتهم في مناقشة القضايا الوطنية المهمة مكنتهم من ترك أثر تاريخي. وكانت هذه صفات مشتركة بين القادة الستة، على الرغم من اختلاف المجتمعات التي ينتمون إليها.

• إذا كانت التطورات التكنولوجية تفرض على القادة فهم آثارها، وتعزيز ضبط النفس الاستراتيجي، فإن قادة اليوم ينبغي عليهم التحلي بالعزيمة القوية، والابتكار في التعامل مع التعقيدات؛ لتحقيق النتائج التي يطمحون إليها.

ملخص كتاب